كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلمية

موقف محمد رشيد رضا من السعد التفتازاني في ميزان النقد البلاغي

إعداد

د/ محمد عبد الفتاح إبراهيم النجار

مدرس البلاغة والنقد

في كلية اللغة العربية بإيتاي البارود جامعة الأزهر

(العدد الثامن والثلاثون الجزء الثالث ٢٠١٩م)

الملخص باللغة العربية

انتقد محمد رشيد رضا السعد التفتازاني انتقادًا لاذعًا ، واتهمه بإفساد البلاغة وإخراجها عن موضوعها بالكلية ، ورماه بضعف اللغة وركاكة الأسلوب وفساد الذوق ، وطعن في كتبه وثلب منها كل فضيلة حتى وصفها بالرسوم الميتة التي سماها الجهل علمًا ، وكان لهذا الانتقاد أثر بالغ وصدى كبير على السعد وكتبه وإقبال الناس على قرائتها، فلم يسلم التفتازاني من اللوم والنقد على مر السنين دون تثبت أو تحقيق ، وكأنها عدوى أصابت الدارسين.

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد ، بل إن الطعن الشديد في كتب السعد قد فتح بابًا للاستهانة والاستخفاف بعلوم المتقدمين جملة واحدة ، فقد أتى بعده مَن لم يتوقف بجرأته على السكاكي والسعد والمتأخرين فحسب ، بل تجاوز ذلك وطغى حتى ادعى أن بلاغة الإمام عبد القاهر ما هي إلا عجوز شمطاء ، أو أن الذي يلجأ إلى البلاغة العربية القديمة هو كالمريض الذي يلجأ إلى حلاق القرية ليداويه ، معرضًا عن الطبيب الممارس المؤهل للعلاج!.

من أجل ذلك تتبعت في هذا البحث نقدات محمد رشيد رضا للسعد التفتازاني من خلال كتبه ومقالاته ، محاولًا رصدها وتحليلها ومناقشتها مناقشة علمية موضوعية ، ومقارنتها بما في كتب السعد التفتازاني ؛ لأستكشف من خلالها إلى أي مدى كان رشيد رضا منصفًا في نقده ، ومعتمدًا على منهج علمي رصين قوامه الأدلة والبراهين ، أم كان يغلبه هواه ، ويُخضِعه حبه لشيخه الإمام محمد عبده واتباع منهجه.

الكلمات المفتاحية:

محمد رشيد رضا– السعد التفتازاني– المطول– المنار.

الإيميل الجامعي: mohammedelnggar.419@azhar.edu.eg

Research Summary

Mohammed Rashid Reda position of Saad Taftazani In the balance of rhetoric criticism

Mohammed Rashid Reda Saad Al-Taftazani criticized the stinging, and accused him of corrupting rhetoric and took it out of the subject in college, and threw him weak language and the thinness of style and corruption of taste, and challenged his books and defeated them all virtue until he described the dead drawings, which he called ignorance of science, and this criticism had a great impact and echo on Saad Taftazani has not been spared blame and criticism over the years without proving or investigating, as if it were an infection that affected the students.

Not only did this stop, but the severe challenge in the books of Saad has opened a door to underestimate and disparage the science of applicants in one sentence, it came after those who did not stop boldly on Sakaki, Saad and late, but exceeded it and overwhelmed until he claimed that the rhetoric of Imam Abdul-Qaher Only an old Shata, or that the resort to the ancient Arabic rhetoric is like a patient who resorted to the barber village to heal him, an exhibition of the practitioner qualified for treatment !.

For this purpose I traced the critiques of Mohammed Rashid Reza to Saad Taftazani through his books and articles, trying to monitor, analyze and discuss them objectively scientific discussion, and compare them with the books of Saad Al-Taftazani; Sober based on the evidence and evidence, or was dominated by amateur,

and subjected his love to his Sheikh Imam Muhammad Abdo and follow his approach.

key words:

Mohammed Rashid Reda - Saad Al-Taftazani - Al-Mutaul - Al-Manar.

University Email:

mohammede lnggar.419@azhar.edu.eg

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

«اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلًا، وأنت تجعل الحزن إذا شئت سهلا»[1]

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ؛ فجعله شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجا منيرًا، وجعل فيه أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرًا، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. ... وبعد.

فقد هيأ الله عز وجل للغة العربية الشريفة رجالًا أفنوا حياتهم في العناية بها والكشف عن وجوه حسنها جيلًا بعد جيل ، فسطروا عبر الزمان مؤلفات ظلت شاهدة على عنايتهم الفائقة باللغة وعلومها ، ومن هؤلاء العلماء: (سعد الدين التفتازاني) عالم موسوعي انتهت إليه رئاسة العلم في المشرق في زمانه، واشتهر ذكره ، وطار صيته في الآفاق بما خَلَّف من تصنيفات فريدة في علوم البلاغة والأصول وعلم الكلام والتفسير وغيرها من العلوم ، وقد تنافس العلماء في تحصيل مؤلفاته والعناية بها وقرائتها وإقرائها عبر العصور ، فقد قال عنه ابن خلدون: " ولقد وقفت بمصر على تآليف متعددة لرجل من عظماء هراة ، من بلاد خراسان، يشتهر بسعد الدين التفتازاني، منها في علم الكلام وأصول الفقه والبيان ، تشهد

(١) الحديث أخرجه ابن حبان في صحيحه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، باب الأدعية (ذكر ما يستحب للمرء سؤال الباري جل وعلا تسهيل الأمور عليه إذا صعبت) حديث رقم: ٩٧٤ ت : شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م. ، وهو حديث إسناده صحيح ، وصححه الحافظ ابن حجر في "أمالي الأذكار" فيما نقله ابن علان ٢٥/٤ ت : كيلاني محمد خليفة ، مؤسسة قرطبة – بيروت.

بأن له ملكة راسخة في هذه العلوم ، وفي أثنائها ما يدل على أن له اطلاعًا على العلوم الحكمية ، وقدمًا عالية في سائر الفنون العقلية"[١].

وله في علم البلاغة شأن كبير وشهرة ذائعة ، فقد شرح كتاب التلخيص للخطيب القزويني فأحسن شرحه في كتابه:(المطول) الذي يُعد أفضل شروح التلخيص- على كثرتها وتنوعها - وأكثرها شهرة وقبولًا وعناية من العلماء ؛ لأنه لم يكن شرحًا فحسب ، بل كان موسوعة بلاغية اتسمت بالضبط والإتقان واستوعبت أكثر آراء البلاغيين مع تحقيقها ونقدها ، الأمر الذي جعل المطول ينال من الشهرة والذيوع ما لم ينله كتاب في بابه حتى كادت حركة التأليف البلاغي أن تتوقف عليه ، فقد صُنفَت عليه حواشٍ كثيرة ، وشُرِحَت خطبته وشواهده أكثر من مرة ، وقد عوَّل عليه طلاب العلم وجعلوه قبلة لهم في مسائل العلم ، حتى صار منتهى طلبهم ، كما قُرِرَ للتدريس في جل المعاهد والمدارس العلمية عدة قرون.

وقد استمر الأمر على هذا الحال حتى جاء الإمام محمد عبده معلنًا ثورته على المناهج التي كانت تُدَرَّس في الأزهر الشريف وخاصة كتاب المطول لسعد الدين التفتازاني ، فهو يرى أن هذا الكتاب وأقرانه من كتب البلاغيين المتأخرين لا تحقق الغاية المرجوة من الدرس البلاغي ، فلا هي تنمي الذوق الفني ، ولا تصقل الملكة النقدية ، ولا تسهم في تحريك العقول للاجتهاد والإبداع والاستنباط ، ولا تعين على التذوق والتحليل والموازنة للوقوف على الأسرار التى بها يرتفع شأن الكلام ، ويفضل بعضه بعضا.

لذلك اهتم الإمام محمد عبده بإحياء التراث العربي وتحرير الفكر من قيود الشروح والتلخيصات والتقريرات ، وانتبه إلى عبقرية الإمام الفذ عبد القاهر الجرجاني ودرتيه الرائدتين : دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة ؛ من أجل إنقاذ البلاغة

(١) مقدمة ابن خلدون: ١١٠١/٣ دار الفكر ، بيروت.

مما أسماه بـ " المرض العضال" الذي أصاب اللغة منذ أن فُتِنَ جميع الدارسين في بلاد العرب والعجم بكتاب مفتاح العلوم للسكاكي ، والمطول والمختصر للتفتازاني والحشود من الحواشى والتقارير وغيرها مما عطل ملكات الطلاب ووقف بهم عند مجرد الحفظ والاستظهار، وكان ذلك سببًا في موت البلاغة العربية في الأزهر الشريف وجميع المدارس الإسلامية.

بحثَ الإمام محمد عبده في خزائن مخطوطات الجامع الأزهر عن كتابي: دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة حتى عثر على نسخة مخطوطة لهما ، فنفض عنهما غبار السنين الطوال ، ثم بحث عن نسخ أخرى لهما بمساعدة تلميذه النجيب محمد رشيد رضا في المدينة المنورة وطرابلس(لبنان) وبغداد وإسطنبول ثم شرع في تحقيقهما وتدريسهما لطلابه في الجامع الأزهر.

ثم سلك التلميذ محمد رشيد رضا نهج شيخه الإمام ، وأكمل ما بدأه ، وقام بتحقيق كتاب أسرار البلاغة ، وقدَّم له بمقدمة شن فيها هجوما شرسا على علماء مدرسة المتكلمين وخاصة السعد التفتازاني حتى وصف كتبه بالرسوم الميتة التي سماها الجهل عِلما ، كما استمر نقده اللاذع في تفسيره المنار ومقالاته العديدة في الصحف والمجلات.

ولا شك أن هذا الانتقاد الشديد كان له أثر بالغ وصدى كبير على السعد وكتبه وإقبال الناس على قرائتها، فلم يسلم التفتازاني من اللوم والنقد على مر السنين دون تثبت أو تحقيق ، وكأنها عدوى أصابت الدارسين .

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد ، بل إن النقد اللاذع الذي وجهه رشيد رضا للسعد التفتازاني والطعن الشديد في كتبه فتح بابًا للاستهانة والاستخفاف بعلوم المتقدمين جملة واحدة ، فقد أتى بعده مَن لم يتوقف بجرأته على السكاكي والسعد والمتأخرين فحسب ، بل تجاوز ذلك وطغى حتى ادعى أن بلاغة الإمام عبد القاهر

ما هي إلا عجوز شمطاء ، أو أن الذي يلجأ إلى البلاغة العربية القديمة هو كالمريض الذي يلجأ إلى حلاق القرية ليداويه ، معرضا عن الطبيب الممارس المؤهل للعلاج!.

من أجل ذلك عقدت العزم على تتبع نقدات محمد رشيد رضا للسعد التفتازاني من خلال كتبه ومقالاته ، محاولًا رصدها وتحليلها ومناقشتها مناقشة علمية موضوعية ، ومقارنتها بما في كتب السعد التفتازاني ؛ لأستكشف من خلالها إلى أي مدى كان رشيد رضا منصفًا في نقده ، ومعتمدًا على منهج علمي رصين قوامه الأدلة والبراهين ، أم كان يغلبه هواه ، ويُخضِعه حبه لشيخه الإمام محمد عبده واتباع منهجه.

أما عن منهج البحث فهو المنهج الاستقرائي التحليلي ؛ الذي أسعى من خلاله لتقديم رؤية واضحة لموقف محمد رشيد رضا من السعد التفتازاني.

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يكون في مقدمة ، وتمهيد ، وثلاثة مباحث وخاتمة.

المقدمة : تحدثت فيها عن موضوع البحث والفكرة التي يقوم عليها بإيجاز. وسر اختياره، وطريقة السير فيه.

التمهيد : تناولت فيه تعريف السعد التفتازاني ومحمد رشيد رضا ومنهجهما في البحث والدراسة.

المبحث الأول : سخرية رشيد رضا من السعد وكتبه (عرض ونقد)

المبحث الثاني : اتهام رشيد رضا السعدَ بإفساد البلاغة (عرض ونقد)

المبحث الثالث : اتهام رشيد رضا السعدَ بضعف اللغة وركاكة الأسلوب وفساد الذوق (عرض ونقد)

الخاتمة : رصدت فيها أهم ما توصلت إليه من نتائج وما اقترحته من توصيات.

ثم ثبت بأهم المصادر والمراجع ، وفهرس للموضوعات.

وبعد... فلا أزعم أنني جئت بالطريف المبتكر ولا بلغت الكمال ، بل هو جهد المقل ، وخطوة على الطريق، فإذا أصاب هذا البحث مرماه فذلك ما سعيت إليه جاهدًا ، وإن أخطأ هدفه فهو رأي الضعيف العاجز ، يُعرَضُ له التقويم ، وينالـه الإصلاح والتهذيب ، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

التمهيد

التعريف بالسعد التفتازاني ومحمد رشيد رضا

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: التعريف بالسعد التفتازاني.

المطلب الثاني: التعريف بمحمد رشيد رضا.

المطلب الأول

التعريف بالسعد التفتازاني

نسبه ومولده:

هو مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني[١]، أشهر ألقابه: سعد الدين التفتازاني، وهو لقبُ غلب على اسمه حتى لا يكاد يُذكر إلا به[٢] ، وكثيرا ما يُطلَّق عليه اختصارًا: السعد أو التفتازاني نسبة إلى تفتازان القرية التي وُلِد فيها، وهي قرية كبيرة بنواحي نسا من بلاد خراسان.[٣]

وقد اختلف المؤرخون في تاريخ مولده ووفاته ، والأرجح أنه وُلِدَ عام ٧١٢هـ، وتوفي عام ٧٩١هـ[٤] ، لكنهم اتفقوا على أن مولده كان بتفتازان ووفاته كانت بسمرقند.

---

(١) ينظر: الدرر الكامنة في أعلام المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني:١١٩/٥ ت: محمد سيد جاد الحق دار إحياء الكتب الحديثة ، وبغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة لجلال الدين السيوطي:٢٨٥/٢ ت: محمد أبو الفضل إبراهيم ، مطبعة عيسى البابي الحلبي، الطبعة الأولى: ١٣٨٤هـ ، والأعلام :٢١٩/٧ قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين لخير الدين الزركلي: دار العلم للملايين – بيروت – الطبعة السابعة

(٢) ينظر: البدر الطالع بمحاسن مَن بعد القرن السابع للشوكاني:٨٥٩ ت: محمد حسن حلاق ، دار ابن كثير بدمشق ، الطبعة الأولى::٢٠٠٦م.

(٣) معجم البلدان لياقوت الحموي:٣٥/٢ دار صادر بيروت ١٣٩٧هـ – ١٩٧٧م.

(٤) ينظر: درر العقود الفريدة للمقريزي: ٤٧١/٣ ت:د/ محمود الجليلي ، دار الغرب الإسلامي بيروت، الطبعة الأولى: ٢٠٠٢م.

نشأته ورحلاته لطلب العلم:

وقد نشأ التفتازاني في أسرة اشتهرت بالفضل والعلم ، فقد كان والده وجده من العلماء والقضاة ، كما اشتُهِرَ والده بلقب فخر الدين.(١)

وكان – رحمه الله– كثير الأسفار والتقلب في البلاد ، لا يقر على قرار، فبعد أن حفظ القرآن الكريم وتلقى علومه الأولى في نسا تنقل بين سمرقند، وهراة وجام ، وسرخس ، وغجدوان ، وتركستان ، وخوارزم ؛ لفرط شغفه في أخذ العلم من أفواه الرجال ، وصدق همته في الارتقاء إلى مدارج الكمال ، وقد لازم عضدَ الدين الإيجي– قاضي قضاة المشرق وشيخ الشافعية ببلاد ما وراء النهر– ملازمة تامة حتى أخذ عنه علم الكلام والأصول والمنطق والبلاغة والعلوم العربية كما تلقى السعدُ العلمَ عن قطب الدين الرازي ، وبهاء الدين السمرقندي، وضياء الدين العفيفي(٢) ، وغيرهما من كبار علماء عصره ، لكن عضد الدين الإيجي كان له الأثر الأكبر في شحصية السعد العلمية ، وظهر ذلك جليًا في نمط شرحه ، وطريقة تحقيقه وتدقيقه ، وقد أكثر السعد من ذكره والثناء عليه ، وكان مما قال فيه : " لم يبق لنا سوى اقتفاء آثاره ، والكشف عن خبيئات أسراره ، بل الاجتناء من بحار ثماره ، والاستضاءة بأنواره"(٣).

---

(١) المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي لابن تغري بردي:٢٤١/١١ ت:محمد محمد أمين ، الهيئة العامة المصرية للكتاب ٢٠٠٥م.

(٢) ينظر: درر العقود الفريدة : ٤٧١/٣ والدليل الشافي على المنهل الصافي لابن تعزي بردي: ٧٣٤/٢ ت: فهيم محمد شلتوت ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ١٣٧٥هـ ، وإنباء الغمر بأبناء العمر لابن حجر العسقلاني :٢٣٨/١ طُبع بإشراف د/ محمد عبد المعيد خان ، دائرة المعارف العثمانية ، وهو مصور بدار الكتب العلمية بيروت ، الطبعة الثانية:١٩٨٦م.

(٣) فوائد شرح مختصر الأصول ، حاشية التفتازاني على شرح العضد:٣/١.

مكانته العلمية:

برع السعد ونبغ في علوم كثيرة: كالنحو ، والصرف ، والبلاغة، والأصول ، والتفسير ، وعلم الكلام وغيرها من العلوم ، وشرع في التصنيف وهو في سن مبكرة ، وطار صيته ورحل إليه طلبة العلم لكي ينهلوا من علمه ، وتخرج على يديه كثير من العلماء، منهم: حسام الدين الأبيوردي الخطيبي[١] (٧٦١- ٨١٦هـ) وحيدر الرومي الشيرازي[٢] (٧٨٠- ٨٥٤هـ) وعلاء الدين الرومي الحنفي[٣] (٧٥٦- ٨٤١هـ).

مذهبه وعقيدته:

اختلف كثير ممن ترجم له حول مذهبه وعقيدته ، فمنهم من ذهب إلى أنه شافعي ، ومنهم من قطع القول بأنه حنفي ، كما رأى فريق أنه ماتريدي ، بينما رأى آخرون أنه أشعري ، والراجح أنه من كبار الماتريدية ، ومجتهدي الأحناف ، وإن عُد شافعيا لبعض مصنفاته وترجيحاته في الفقه الشافعي[٤] .

---

(١) هو الحسن بن علي بن محمد الأبيوردي ، من مؤلفاته: ربيع الجنان في المعاني والبيان، ينظر: شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي:١٢٠/٧ دار الفكر ، القاهرة.

(٢) هو برهان الدين بن حيدربن محمود الشيرازي ، كان بارعًا في المعاني والبان والبديع ، شَرَحَ الإيضاح ، ينظر: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة:٥٤٩/١.

(٣) هو علي بن موسى بن إبراهيم الرومي، فقيه حنفي بارع في كثير من العلوم، ينظر: شذرات الذهب: ٢٤١/٧.

(٤) يراجع ذلك في المطول:٢٠١ ، وحاشية حسن جلبي على المطول : ٣٧٢، وبغية الوعاة :٢٧٦/٢ ووجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام للسخاوي: ٢٩٥/١ ت:د/ بشار عواد معروف وصاحبيه ، مؤسسة الرسالة ، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٥م ، والمنهل الصافي:٢٤١/١١، وإقامة الحجة على أن الإكثار في التعبد ليس ببدعة للكنوي:١٧ ت: عبد الفتاح أبو غدة ، مكتب المطبوعات الإسلامية بيروت ، الطبعة الثالثة ١٩٩٨م

وقد أثنى عليه كل من ترجم له ، ولعل أشهر ما قيل في الثناء عليه كان من معاصره ابن خلدون (ت٨٠٨هـ) حيث قال: " ولقد وقفت بمصر على تآليف متعددة لرجل من عظماء هراة ، من بلاد خراسان، يشتهر بسعد الدين التفتازاني، منها في علم الكلام وأصول الفقه والبيان ، تشهد بأن له ملكة راسخة في هذه العلوم ، وفي أثنائها ما يدل على أن له اطلاعًا على العلوم الحكمية ، وقدمًا عالية في سائر الفنون العقلية"(١). كما أثنى عليه ابن حجر العسقلاني وذلك في قوله: " انتهت إليه معرفة علوم البلاغة والمعقول بالمشرق ، بل بسائر الأمصار، ولم يكن له نظير في معرفة هذه العلوم"(٢).

آثاره العلمية:

وللسعد مصنفات كثيرة، وشروح عديدة ، في البلاغة والنحو والمنطق والأصول، طار ذكرها في الآفاق ، وصارت مورد الدارسين والباحثين ، ومنتهى طلب المتخصصين، ومن أشهرها وأهمها:

١- المطول: شرح تلخيص المفتاح ، وهو أفضل شروح التلخيص على كثرتها وتنوعها، وقد شرع فيه السعد بخوارزم عام ٧٤٢هـ وكان عمره ذلك الحين أقل من عشرين عامًا ، وفرغ منه بهراة عام ٧٤٨هـ ، ويُذكر إن السلطان تيمورلنك قد علق هذا الكتاب على باب قلعة هراة

(١) مقدمة ابن خلدون: ١١٠١/٣ دار الفكر ، بيروت.

(٢) الدرر الكامنة في أعلام المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني:١٢٠/٥ ت: محمد سيد جاد الحق دار إحياء الكتب الحديثة

تعظيمًا له ولصاحبه[1] ، وقد اشتهر الكتاب شهرة لا نظير لها في بابه، حتى قال بعضهم فيه:

ما صنف الناس في علم وما جمعوا مثل المطول في ضبط وإيجاز[2]

٢- مختصر المعاني: وهو مختصر لكتابه السابق الذكر(المطول) ، وقد فرغ منه عام ٧٥٦هـ ، وقد قُرِّر هذا الكتاب لتدريس البلاغة في كثير من معاهد العلم، كما كُتِبت عليه الحواشي الوافرة التي تدل على عظم اهتمام العلماء والدارسين به ، وقد طُبع الكتاب أول مرة بكلكتا عام ١٨١٣م ثم في لكنو عام ١٢٦١هـ ثم بالقاهرة بمطبعة بولاق عام ١٢٧١هـ مع حاشية الدسوقي ثم تكرر طبعه بعدها.

٣- شرح تصريف الزنجاني، وهو شرح لمتن تصريف العِزي الذي وضعه عز الدين إبراهيم الزنجاني (ت:٦٥٥هـ)، ويُعد هذا الشرح أول مصنفات التفتازاني ، فقد فرغ منه عام ٧٣٨هـ وهو لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره ، وقد اشتهر هذا الشرح وطار ذكره في الآفاق، وطُبِعَ مرات عديدة ، وكانت أول طبعة له في القسطنطينية عام ١٢٥٣هـ ، ثم طبع بطهران ، ودهلي ، وبمومباي ، ولكنو ، ثم بالقاهرة عام ١٣٠٧هـ .

٤- الإرشاد: وهو متن مختصر في النحو يشبه كافية ابن الحاجب ، ألفه لابنه كما ذكر في مقدمته ، وقد فرغ منه عام ٧٧٨هـ في خوارزم ، وطُبِعَ محققًا باسم إرشاد الهادي[1].

---

(١) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: حاجي خليفة :٤٩٨/١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٢م.

(٢) ذكر هذا البيت في حاشية الفناري على المطول لحسن شلبي: ٣ ولم يُعلَم قائله، من مطبوعات شركة الصحافية العثمانية: ١٣٠٩هـ.

٥- التلويح إلى كشف حقائق التنقيح: حاشية على كتاب التوضيح شرح متن التنقيح لصدر الشريعة عبد الله بن مسعود المحبوبي (ت:٧٤٧هـ) وهو كتاب مختص بأصول الفقه، وقد فرغ منه في كلستان – مدينة بتركستان– عام ٧٥٨هـ وقد بلغ من العمر ستة وثلاثين عامًا، وهو كتاب يشهد بفضل السعد وسعة علمه ، وقد أنزله العلماء المنزلة اللائقة به ، فأولوه عناية فائقة ، وقرروا تدريسه في معظم معاهد العلم ، ووضعوا عليه الحواشي والتعليقات ، وقد طُبع هذا الكتاب أول مرة في دهلي عام ١٢٦٧هـ ، ثم في لكنو عام ١٢٨١هـ مع التوضيح ثم في الأستانة ثم طبع بالقاهرة بالمطبعة الميمنية عام ١٣٢٧هـ.

٦- الحاشية على شرح عضد الدين الإيجي على مختصر المنتهى لابن الحاجب: وهو شرح على "مختصر منتهى الوصول والأمل في علمي الأصول والجدل" لابن الحاجب ت:٦٤٦هـ وقد شرح هذا المختصر عدة شروح من أفضلها شرح عضد الدين الإيجي شيخ السعد ، فحشاه السعد بهذه الحاشية الرائقة الفائقة، وقد فرغ منها بخوارزم عام ٧٧٠هـ وقد طبعت هذه الحاشية مع شرح العضد مع حاشية السيد الشريف الجرجاني بمطبعة بولاق عام ١٣١٩هـ.

٧- الحاشية على الكشاف ، وهي حاشية على تفسير الكشاف للزمخشري، وهي غير تامة، شرع فيها بسمرقند عام ٧٨٩هـ ، ووافاه الأجل قبل إتمامها، وقد ذكر كثير من العلماء أن هذه الحاشية لا نظير لها ، وقد اعتنى بها العلماء وزانوها بالدرس والتعليق ووضع عليها بعضهم الحواشي.

---

(١) طُبِعَ بهذا الاسم في دار البيان العربي بجدة عام ١٤٠٥هـ .

٨- شرح الشمسية ، وهو شرح على متن الشمسية ، وهو رسالة مختصرة في المنطق ألفها نجم الدين علي بن عمر القزويني (ت:٦٧٥هـ) وقد ألفها للخواجة شمس الدين الجويني ولذا سميت بالشمسية، وشرح السعد من أهم شروح متن الشمسية، وقد طبع في لكنو سنة ١٣٢٦هـ ، وطبع حديثا (٢٠١١) في الأردن عن دار النور في عمان.

٩- غاية تهذيب الكلام في تحرير المنطق والكلام: وهو متن جيد ، مختصر ، وافر المعاني والفوائد، وقد ذُكِر أن السعد قد ألفه لابنه محمد ، وجعله قسمين: قسم في المنطق ، وقسم في علم الكلام، وقد ألفه بسمرقند في رجب سنة ٧٨٩هـ ، وقد أقبل العلماء على قسم المنطق به فانتشر واشتهر ، وقُرر للتدريس في كثير من معاهد العلم المعتبرة زمنًا طويلا ، وصُنفت عليه الشروح الكثيرة ، وفاقت العناية به القسم الكلامي الذي لم يحظ بمثل ذلك الاهتمام ، وقد طبع الكتاب أول مرة في كلكتا عام ١٢٤٣هـ مع شرح اليزدي ، ثم تكرر طبعه مع شروح مختلفة بعد ذلك من أشهرها طبعة مصطفى الحلبي عام ١٣٥٥هـ مع شرح الخبيصي وحاشيتي الدسوقي والعطار.

١٠- شرح العقائد النسفية ، وهو شرح على متن العقائد الذي وضعه الإمام نجم الدين النسفي (ت:٥٣٧هـ) وقد تعددت شروح هذا المتن إلا أن شرح السعد يبقى أفضلها وأكثرها شهرة وقبولا واهتمامًا وعناية من العلماء ، وقد تقرر للتدريس في جملة من معاهد العلم الشرعية المعتبرة حُقبًا من الزمن، وقد أتمه السعد بخوارزم عام ٧٦٨هـ.

١١- المقاصد ، وهو متن مختصر في علم الكلام.

١٢- شرح المقاصد ، وهو شرح للمتن السابق ذكره ، وقد فرغ السعد من المتن وشرحه بسمرقند عام ٧٨٤هـ، وهو من أعظم كتب علم الكلام على الإطلاق ، وقد اعتنى به العلماء وكتبوا عليه الحواشي، وقد طبع المتن مع شرحه في إستنبول عام ١٣٠٥هـ ثم تعددت طبعاته.

١٣- النعم السوابغ في شرح الكلم النوابغ : وهو كتاب في فقه اللغة ، شرح فيه السعد كتاب نوابغ الكلم للزمخشري، وهو كتاب تعليمي متميز يحوي فوائد لغوية ونحوية متنوعة، وقد طُبع هذا الكتاب في القاهرة بمطبعة وادي النيل عام ١٢٨٧هـ ثم في بيروت عام ١٣٠٦هـ.

المطلب الثاني

التعريف بمحمد رشيد رضا

نسبه ومولده:

هو محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن بهاء الدين القلموني، وُلد عام (١٢٨٢هـ - ١٨٦٥م) في قرية القلمون الواقعة على جبال لبنان على ساحل البحر الأبيض المتوسط جنوب طرابلس الشام [١]، أسرته علوية

(١) ينظر: الأعلام :١٢٦/٦، ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة :٣١٠/٩ مكتبة المثنى ، بيروت.

حجازية الأصل ، هاجرت منذ زمن بعيد إلى العراق ، واستوطنت مدينة النجف ، ثم هاجرت مرة أخرى إلى الشام ، وتنقلت في أجزاء من جبل لبنان ، حتى استقرت في قرية القلمون[1]، وينحدر نسبه من العترة النبوية الشريفة وينتهي نسبه إلى الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما.

نشأته ورحلاته لطلب العلم:

نشأ محمد رشيد رضا في بيئة دينية وعلمية ، فقد كان والده شيخ القلمون وإمام مسجدها ، وقد كان له الفضل الأكبر في تربيته وتعليمه وتهذيب أخلاقه ، وقد تعلم القراءة والكتابة ومباديء الحساب وحفظ القرآن الكريم في بلدته ، ثم انتقل إلى طرابلس الشام ليلتحق بالمدرسة الرشيدية ، لكنه سرعان ما تركها لعدم رغبته فيها ؛ لأنها كانت معدة لتخريج الموظفين[2]، كما كانت الدراسة فيها باللغة التركية ، ثم التحق عام ١٨٨٢م بالمدرسة الوطنية الإسلامية التي أنشأها الشيخ حسين الجسر ، وكان التعليم فيها باللغة العربية والتركية، والفرنسية ، فتعلم فيها العلوم العربية والشرعية والمنطق والرياضيات والفلسفة الطبيعية ، وفي هذه الفترة لازم محمد رشيد رضا شيخه حسين الجسر وعكف عنده حتى تعلم منه الفقه والأدب والعلوم العقلية ، ثم أجازه في تدريس العلوم الشرعية والعقلية والعربية ، كما اتصل في الوقت نفسه بالشيخ محمود نشابة ؛ ليتعلم منه الحديث الشريف ، وحصل منه على

(١) ينظر:المعاصرون لمحمد كرد علي:٣٣٤ من منشورات المجمع الدمشقي ١٩٨٠م ، علق عليه وأشرف على طباعته الأستاذ محمد المصري ، والاتجاهات الاجتماعية و السياسية في جبل لبنان والمشرق العربي (١٨٦٠-١٩٢٠) لوجيه كوثراني: ١٢٠ بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٧٨م. و

(٢) المنار والأزهر لمحمد رشيد رضا: ١٣٦، دار النشر للجامعات، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٨م..

إجازة في روايته ، كما كان حريصًا على حضور دروس كثير من علماء طرابلس مثل: الشيخ عبد الغني الرافعي، ومحمد القاوجي ، ومحمد الحسيني، وغيرهم [1].

وكان الشيخ محمد رشيد رضا في هذه الفترة متابعًا لمجلة العروة الوثقى، شغوفا بها ، حريصًا على قراءة المقالات التي تنشر فيها للعلماء والأدباء، وتأثر كثيرًا بمؤسسيها: جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ، وحاول الاتصال بالأفغاني لكنه لم يستطع ، وتوقفت علاقته به عند حدود تبادل الرسائل ؛ لأن الأفغاني كان يقيم في الآستانة تحت الرقابة حتى وفاته سنة (١٣١٤ هـ = ١٨٩٧م) . لكنه تمكن من الاتصال بالإمام محمد عبده ، حيث كان يقيم في بيروت تنفيذا لحكم نفيه من مصر لاشتراكه في الثورة العرابية ، وكان يُلقِي دروسه في المدرسة السلطانية ببيروت ، وعلى الرغم من طول المدة التي مكثها محمد عبده في بيروت فإن الظروف لم تسمح لمحمد رشيد رضا بالانتقال إلى المدرسة السلطانية والاتصال به مباشرة ، لكنه التقى به مرتين في طرابلس ، حين جاء إلى زيارتها تلبية لدعوة كبار رجالها، وتوثقت الصلة بينهما ، وازداد تعلق محمد رشيد رضا بالإمام محمد عبده ، وأصبح شيخه الذي يحرك عقله وفكره للجمع بين العلوم الدينية والعصرية والسعي لرقي الأمة الإسلامية.

وعندما عاد محمد عبده إلى مصر قرر محمد رشيد رضا الهجرة إليها ليتعلم على يد شيخه المفضل ، وقد آنس الشيخ من تلميذه من الرشد والأهلية ما يجعله محل ثقته ومعقد أمله، فرفعه إليه وخصه بمودته، وجعله لسان أفكاره ووارث

(١) ينظر: مشاهير علماء نجد وغيرهم لعبد الرحمن بن عبد اللطيف:٢٨٨ ، دار اليمامة للبحث والترجمة ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٤هـ ، ١٩٧٢م.

علمه وحكمته[١] ، ثم بدأ محمد رشيد رضا دعوته الإصلاحية بإشراف شيخه ، وأسس مجلة المنار عام ١٨٩٨م ، وهي مجلة إسلامية تهدف إلى الإصلاح الديني والاجتماعي ، وإبطال الشبهات الموجهة للإسلام ، وتفنيد ما يعزى إليه من خرافات ، وقد طار ذكرها في الافاق وأثنى عليها كثير من العلماء والمفكرين ومنهم الشيخ محمد الغزالي فقد قال:" مدرسة المنار أذكى مدرسة في العصر الحديث صالحت بين السلف والخلف ، والعقل والنقل ، والاجتهاد والتقليد ، ورسمت أهدافًا واضحة للنهوض بالعقل الإسلامي والطلب لأمة عليلة". [٢]

آثاره العلمية:

تَميَّز الشيخ محمد رشيد رضا بوفرة إنتاجه العلمي ؛ فبالإضافة إلى المقالات العديدة التي نشرها في مجلة المنار، ألَّف العديد من الكتب في التفسير ، والبلاغة ، والأدب ، والتاريخ ، والدعوة الإسلامية ، من أشهرها وأهمها:

- " تفسير القرآن الحكيم" الذي اشتُهِر بتفسير المنار، وهو أهم مؤلفاته ، ويقع في اثني عشر مجلدًا ، وقد واصل فيه ما بدأه شيخه محمد عبده الذي توقف عند تفسير قول الله تعالى: { وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا} (النساء: ١٢٥) وقد حرص فيه الشيخ رشيد على ربط تفسير القرآن بواقع المسلمين والتحديات التي تواجههم على اعتبار أن القرآن كتاب هداية للناس في كل زمان ومكان ، كما اعتنى عناية واضحة بالدراسات اللغوية بفروعها المتعددة ، وأدرك قيمة الفهم الموضوعي الاستقرائي للقرآن الكريم ، ودعا

(١) ينظر : تاريخ الأستاذ الإمام: السيد محمد رشيد رضا : ٥٨٦/١ الدار الفيصلية للنشر والتوزيع والتصدير ، الطبعة الأولى ٢٠٠٣م.

(٢) تراثنا الفكري في ميزان العقل والشرع : محمد الغزالي:٥٣ دار الشروق ، الطبعة الرابعة.

إليه ، وقد شاءت إرادة الله عز وجل أن لا يُكمل ذلك التفسير، فقد حالت وفاة الشيخ رشيد دون إتمامه ، إذ توفاه الله تعالى بعد فراغه من تفسير قوله تعالى من سورة يوسف: { ربِّ قد آتَيتَني من المُلك وعلَّمتني من تأويلِ الأحاديثِ فاطِرَ السمواتِ والأرضِ أنتَ وليِّ في الدُّنيا والآخرةِ توفَّني مُسلِماً وأَلحِقني بالصالحينَ} (يوسف: ١٠١).

- " الوحي المحمدي" ناقش فيه أسباب عجز المسلمين عن إبلاغ روعة الإسلام إلى العالم على الوجه الذى يحقق اقناع غير المسلمين به ، ثم الإيمان به.
- "الخلافة" تحدث فيه عن الأحكام الشرعية المتعلقة بالخلافة الإسلامية ، وسلطة الأمة ، ومعنى الجماعة ، وما يجب على الإمام للدين والأمة ، وغير ذلك من الأمور المتعلقة بالسلطة في الإسلام.
- "السنة والشيعة أو الوهابية والرافضة" حقائق دينية تاريخية اجتماعية إصلاحية.
- تحقيق كتاب " أسرار البلاغة في علم البيان للإمام عبد القاهر الجرجاني" وكان تحقيقه لهذا الكتاب مستمدًا من رغبته- كما يقول- في إنقاذ الأدب العربي والبلاغة مما أسماه بـ " المرض العضال" الذي أصاب اللغة منذ أن فُتِنَ جميع الدارسين في بلاد العرب والعجم بكتاب مفتاح العلوم للسكاكي ، والمطول والمختصر للتفتازاني والحشود من الحواشى والتقارير وغيرها مما عطل ملكات الطلاب ووقف بهم عند مجرد الاستظهار والحفظ ، وكان ذلك سببًا في موت البلاغة العربية في جميع المدارس الإسلامية.

ولـه أيضا مؤلفات كثيرة تهتم بقضايا الإسلام ، والمسلمين ، والإصلاح الديني والاجتماعي، ومن أهمها:

- يسر الإسلام وأصول التشريع العام.
- حقوق النساء في الإسلام وحظهن من الإصلاح المحمدي العام.
- ذكرى المولد النبوي.
- تاريخ الأستاذ الإمام(الشيخ محمد عبده).
- شبهات النصارى وحجج الإسلام.
- نداء للجنس اللطيف.
- السنة والشيعة.
- حقيقة الربا.
- مناسك الحج.

وفاته:

توفي – رحمه الله– بعد حياة حافلة بالعطاء والكفاح عام ١٣٥٤هـ – ١٩٣٥م ، وهو في طريق عودته للقاهرة بعد وداع الأمير سعود بن عبد العزيز في مدينة السويس ، وكان عمره ذلك الحين قد جاوز السبعين عامًا ، ودُفن في القاهرة بجوار شيخه الإمام محمد عبده رحمها الله تعالى رحمة واسعة وأسكنهما فسيح جناته.

المبحث الأول

سخرية محمد رشيد رضا من السعد وكتبه

عرض ونقد

دعوى محمد رشيد رضا:

سخر الشيخ رشيد من كتب السعد وشهرتها وذيوعها واصطفائها للتدريس في الجامع الأزهر ، وبدت هذه السخرية في كتبه ومقالاته ، من ذلك قوله في مقدمته لكتاب أسرار البلاغة:"وكادت كتب عبد القاهر تُمحَى وتُنسخ ، وصارت حواشي السعد تُطبع وتُنسخ، وهذا هو حظ العلم النافع إذا أُلقِي إلى الأمة في طور التدنى والضعف ، فمثل عبد القاهر في أسرار بلاغته ودلائل إعجازه ، كمثل ابن

خلدون في مقدمته ، والسلطان سليمان العثماني في قوانينه ، ورُب غذاء طيب نافع عافته النفس لمرض ألم بها حتى إذا نقهت أو أبلت اشتهته وطلبته. وهذا هو مثلنا أمس واليوم، فقد كنا متفقهين على أخذ العلم من كتب علمائنا المتأخرين كما يختار المريض الغذاء الضار، فظهر فينا هداة مرشدون يسعون في إحياء ما أماته الجهل من آثار سلفنا ومصنفات أئمتنا، ويدلوننا على العلم الحي الذي تفجر من ينابيع النفوس الحية، لنفرق بينه وبين الرسوم الميتة التي سماها الجهل علما"(١).

التحليل والنقد:

من خلال النص السابق يتضح أن الشيخ رشيد كان لا يروقه شهرة وذيوع كتب السعد وانتشارها واصطفائها لتدريس علوم البلاغة في الأزهر الشريف ، كما أنه كان يتعجب من ترك المنابع الأصيلة للبلاغة ككتابي الإمام عبد القاهر: الدلائل والأسرار، وأرجع ذلك إلى أن الأمة كانت في طور التدنى والضعف والتخلف وجمود الفكر ، كما قبَّحَ كتب السعد وثلب منها كل فضيلة ووصفها بالرسوم الميتة التي سماها الجهل علما، ولا شك أن هذه الرؤية فيها كثير من الازدراء للسعد التفتازاني وطائفة كبيرة من علمائنا الأفذاذ الذين كان لهم أثر واضح في تشكيل وتقعيد هذا العلم الجليل.

كما ظهر في كلامه أثر شيخه الإمام محمد عبده في رؤيته لكتب السعد والمتأخرين ، وعدم التمييز بينه وبين غيره من شراح التلخيص ، فهو يستكمل ما بدأه شيخه من الثورة على تدريس بلاغة السكاكي والسعد في الجامع الأزهر ، والسعي نحو التخلص من هيمنة شروح التلخيص على ساحة الدرس البلاغي

(١) أسرار البلاغة فى علم البيان – الإمام عبد القاهر الجرجاني :٧ ، ت: محمد رشيد رضا – دار المعرفة بيروت لبنان.

ووضع الإمام عبد القاهر الجرجاني بدرتيه الرائدتين – دلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة– في صدارة المشهد البلاغي.

كما لا يخلو النص من إشارة ضمنية لشيخه المصطفى الإمام محمد عبده في قوله: " فظهر فينا هداة مرشدون يسعون في إحياء ما أماته الجهل من آثار سلفنا ومصنفات أئمتنا، ويدلوننا على العلم الحي الذي تفجر من ينابيع النفوس الحية، لنفرق بينه وبين الرسوم الميتة التي سماها الجهل علمًا"

فقد رأى الشيخ وتلميذه أن الدراسة في الأزهر الشريف كانت تقوم وفق منهج عقيم قائم على تصورات العصور المظلمة التي استقرت في الحواشي والمتون، وتعتمد على التفريعات والتقسيمات التي لا تنتهي دون جدوى ، لذلك رأى ضرورة تعديل المناهج وتهذيبها حتى يستطيع الأزهر البقاء والصمود والاستمرار في أداء رسالته العالمية، وحتى لا ينصرف طلاب العلم عنه إلى معاهد العلم الأخرى.

لذلك اهتم الشيخ محمد عبده وتلميذه رشيد رضا بإحياء كتابي دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة للعبقري الفذ الإمام عبد القاهر الجرجاني رغبة منهما في تحرير الفكر من قيود التقليد والشروح والتلخيصات والتقريرات.

ولا شك أن دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة هما الأصلان الجليلان اللذان لم يسبقهما سابق ممن كتب في البلاغة ، لكنه لا شك أيضا أن مَنْ طلب البلاغة منهما وحدهما قد وقع في بحر تتلاطم أمواجه ، راكبه على غرر الغرق ، والذي يضمن لراكبه النجاة هم الذين قعدوا قواعد العلم وكتبوا الكتب والحواشي وضمنوها دررًا لا يعرض عنها إلا جاهل ، ولا يذمها ويحث الناس على الإعراض عنها إلا من

استهان بالعلم والعلماء ، ولا يحصل طالب العلم من ذمِّهم إلا الاستهانة دون العلم [١].

وقد فعلت هذه الاستهانة بالسعد التفتازاني وكتبه فعلها المتمادي جيلا بعد جيل ، وكان لها أثر بالغ وصدى كبير، فلم يسلم التفتازاني من اللوم والنقد على مر العصور دون تثبت أو تحقيق.

فها هو أمين الخولي يستخف بمختصر السعد قائلا : "ولعلنا لو جردنا ما في مختصر التفتازاني من قضايا فلسفية ومنطقية لخرجنا بموجز في الفلسفة له قيمة ، ونراه يستغرق في هذه الفلسفة ويعز عليه أن يدعها ، فيحيلك قبل ذلك إلى حيث تجد الكفاية قائلا وفي المقام مباحث أخرى شريفة أوردناها في الشرح ، أو وشحنا بها الشرح ، وقال أيضا: " وقد استبعد الأزهريون كتب التفتازاني التي كانت مهلكة للروح الفنية ، ومفسدة للذوق الأدبي[٢].

وقال الشيخ عبد المتعال الصعيدي:"وكان سعد الدين من علماء العجم الذين تأثروا بالسكاكي في طريقته التقريرية ، وفي ضعف أسلوبه ؛ لضعف سليقته العربية، بل كان هو وأمثاله ممن أتى بعد السكاكي من علماء العجم أضعف منه ذوقا أدبيا، وسليقة عربية؛ فمضوا في الطريقة التقريرية إلى أن وصلوا إلى نهايتها في البعد عن الذوق الأدبي، ثم أخذوا ينشرونها هنا وهناك إلى أن غزت علماء العرب ، وغزت جميع العلوم من عربية ، إلى دينية ، إلى غيرها من العلوم. وصارت عنايتها بتقرير عبارات المتون أكثر من عنايتها بتقرير مسائل العلوم.

---

(١) ينظر: مقدمة الشيخ محمود شاكر لأسرار البلاغة :١٧ مطبعة المدني بالقاهرة – الطبعة الأولى:١٤١٢هـ – ١٩٩١م.

(٢) ينظر: مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب لأمين الخولي:١٤٨و٢٥١ دار المعرفة ، الطبعة الأولى: ١٩٦١م.

ثم تَهَافتَ المتأخرون من علماء البلاغة على شرحَيْ سعد الدين علي التلخيص، يضعون عليهما الحاشية بعد الحاشية ، ويضعون على الحاشية التقرير بعد التقرير، وشُغف المدرسون بتلك الكتب في الجامع الأزهر وغيره من الجامعات الإسلامية في الأقطار المختلفة ، يتعمقون في درسها إلى أقصى حدود التعمق، وينتقلون في درسها من المتن إلى الحاشية إلى التقرير، في استقصاء غريب، وتفنُّن في الفهم والبحث. ولو أن كل هذا في صميم مسائل البلاغة لهان الخَطْب ، لكن أكثره في بحوث خارجة عن المسائل، وفي أسلوب ركيك يُفْسِد ملكة البلاغة؛ فإذا كانت فيه فائدة قليلة؛ فإنها تضيع في هذا الخِضَمّ الذي لا فائدة فيه"[1].

وهكذا تلقف كثير من الأساتذة والدارسين كلام الإمام محمد عبده والشيخ رشيد رضا، فرددوه ترديدًا متواصلًا ، ولا شك أن كثيرا مما قالوه يحمل قدرًا بالغ الشناعة من الاستهانة بعقول الماضين من العلماء وأقدارهم.

ثم تفاقمت تلك الدعوة واستشرت ، فلم تمض عشرون سنة على ما ردده الشيخ رشيد رضا من الاستهانة بالعلماء المتأخرين وكتبهم حتى جاء الدكتور طه حسين حاملًا كل الاستهانة والاستخفاف بعلوم المتقدمين جملة واحدة ، ثم فعلت الاستهانة فعلها المتمادي وإذا بنا نرى اليوم أساتذة لا يقفون بجرأتهم على السكاكي والسعد التفتازاني ، بل يتعدون هذا إلى منشىء علم البلاغة نفسه ، فيعلمون اليوم طلابهم الصغار أن بلاغة عبد القاهر ما هي إلا عجوز شمطاء ، أو أن الذي يلجأ إلى البلاغة العربية القديمة هو كالمريض الذي يلجأ إلى حلاق القرية ليداويه ، معرضا عن الطبيب الممارس المؤهل لعلاج المرضى! ولا شك أنها نكبة نزلت بعلوم الأمة العربية الإسلامية على يد الصغار في حقيقتهم ، الكبار في مراتبهم التي

(١) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة / عبد المتعال الصعيدي: ١/٧- مكتبة الآداب – الطبعة السابعة عشر: ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

أنزلتهم إياها تصاريف الزمان ، فأطلقوا ألسنتهم في مواريث أربعة عشر قرنا بالاستهانة والقدح والازدراء.

فكلُّ من دعا طُلَّاب العلمِ إلى الإعراض عن الكُتُب التي قَعَّدت القواعد، ومحَّصت الكتب التي تُعدُّ أصلًا في علمٍ لم يسبقهم إلى مثله سابق كسيبويه وعبدالقاهر ، وحثَّهم على الرجوع إلى الأصل وحدَه دون استعانة بمن قعَّدوا قواعد هذا العلم وقتلوه بحثًا وتنقيبا ، فقد استهان بعقول هؤلاء الأئمة العظام الذين خدموا العلم بإخلاص وورع جيلًا بعد جيل وعوَّد طلبة العلم أن يستهينوا ويستخفُّوا بالعلم نفسه ، وهذا هو البلاء الماحقُ لكلِّ فضيلة في طالب العلم ، ويخرجه من حيز التواضع في طلب العلم إلى حيز الغرور والتبجح والاستطالة بعلم ليسوا منه في قبيل ولا دبير. (١)

وواضح من حديث الشيخ رشيد رضا جوره على السعد التفتازاني ، وهضمه لكثير من حقه ، وعدم تنبهه لما حظت به مصنفاته من إقبال الناس على قرائتها وإقرائها في جميع الأقطار(٢) وعبر مختلف العصور، وكيف دارت حول كتبه تلك الحركة التأليفية العظيمة ، حتى كادت حركة التأليف البلاغي تتوقف على مطوله ، فقد صُنفَت عليه حواشٍ كثيرة (٣) ، وشروح لخطبته(١) وشواهده (٢) ، وأكثر الناس من النقل عنه.

(١) ينظر: مقدمة الشيخ محمود شاكر لأسرار البلاغة :١٧: ٢٩ مطبعة المدني بالقاهرة (الطبعة الأولى:١٤١٢هـ - ١٩٩١م).

(٢) ينظر: البدر الطالع بمحاسن مَن بعد القرن السابع للشوكاني:٨٩٢ ، ٩٠٢ ت: محمد حسن حلاق ، دار ابن كثير بدمشق ، الطبعة الأولى::٢٠٠٦م.

(٣) مثل: حاشية السيد الشريف الجرجاني على المطول

المبحث الثاني:
اتهام رشيد رضا السعدَ بإفساد البلاغة
(عرض ونقد)

دعوى محمد رشيد رضا:

اتهم رشيد رضا السعد التفتازاني كثيرًا بإفساد البلاغة وإخراجها عن موضوعها بالكلية ، ومن أقواله عن حجم الإفساد الذي أحدثته كتب المتأخرين في البلاغة العربية – وخاصة السعد – ما قاله في مطلع صيف عام ١٩٠٥م عن سوء تدريس العلوم الإسلامية وخاصة البلاغة العربية التي ابتُلِيَتْ بمصنفات أفسدتْ ولم تصلح: " ساءت طرق التعليم في المدارس الإسلامية بعد ضعف العلم بضعف الأمة ، وساء اختيار المعلمين للكتب ؛ فصارت العلوم في المسلمين رسومًا منها الدارس ومنها المائل ، ثم تلاشى من العلوم ما لا يقوم بالرسم ؛ لأنه أشبه بالروح منه

(١) مثل: حاشية مفتي زادة على خطبة المطول ، وشرح خطبة المطول للخطابي عثمان نظام الدين (مخطوطات مكتبة الأسد الوطنية).

(٢) مثل : المعول شرح أبيات المطول لوحدي بن إراهيم الفرضي ، وعقود الدرر في حل أبيات المطول والمختصر لحسين بن شهاب الدين العاملي(مخطوطات مكتبة الأسد الوطنية).

بالجسم كعلم البلاغة الذي هو ذوق معنوي، وشعور روحاني، تُطبَع بملكته النفس؛ ثم يظهر أثره في الحس، وهذه الكتب التي اختارها المتأخرون هي شروح لمتون جعلت مذكرة لأصول المسائل، ومهمات القواعد؛ فكانت مناقشات في ألفاظها، واستنباطات في عباراتها، تقطع على من ابتلي بها طريق التحصيل ، وتضله عن سواء السبيل، وأشهر هذه المتون متن التلخيص للشيخ جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني الخطيب بدمشق الذي اختصر به كتاب المفتاح لأبي يعقوب يوسف السكاكي.

وقد كان البلغاء المتقدمون الذين انتهت إليهم البلاغة والقدرة على البيان يأتون البلاغة من بابها بما يزاولون من قراءة الكلام البليغ وتفهم معانيه، والتفطن لأساليبه ومناحيه ، حتى إذا ما أحس الإمام عبد القاهر بضعف عناية الناس بفهم الكلام البليغ ، ورأى النفوس منصرفة إلى العناية بزخرف اللفظ وإن عجز عن أداء المعنى المراد ، وقصر عن التأثير المطلوب فوضع كتابيه:(أسرار البلاغة) في البيان، و(دلائل الإعجاز) في المعاني؛ ليصرف الناس عن المجاهل التي تعسفوا فيها، ويهديهم إلى الطريق التي ضلوها؛ ولكن جاء بعده السكاكي فاقتبس من كتابه القواعد والأحكام التي وضعها لإقناع الجاهليين ، وتسهيل الغوص على الدرر للغواصين، فجعل الفن رسمًا محدودًا، واصطلاحات نظرية حظ الذهن منها بالتصور والتصوير أكبر من حظ النفس بالتأثر والتأثير، ثم اختصر الخطيب بتلخيصه ما كتبه السكاكي فكان كتابه أوغل في الرسم والاصطلاح؛ وأبعد عن النفوذ إلى مواقع التأثر والتأثير من الأرواح.

وجاء بعد ذلك سعد الدين التفتازاني الذي صرف كل ذكائه في ممارسة العلوم النظرية من المنطق والجدل والمناظرة والفلسفة والكلام؛ فشرح (التلخيص) على طريقته في العلوم النظرية ، فخرج بذلك علم البلاغة عن موضوعه بالكلية،

وابتليت كتب السعد بأناس وضعوا عليها حواشي للبحث في ألفاظها وأساليبها دون البحث في أساليب الكلام البليغ المأثور فصارت هذه الكتب عقبات أو عواثير في طريق البلاغة بل صرفت الناس عنها؛ وحالت بينهم وبينها" (١).

ومن أقواله أيضا في ذم كتب السعد والحواشي التي صُنِفَت عليه :" لم تعد كتب علوم البلاغة تفيد قارئها البلاغة، ولا تساعده عليها، بل ربما صارت صادة له عنها، وحائلة دونها، فكأين من مدارس قرأ أدق كتبها كشرحي السعد للتلخيص مرارًا مع حواشيها الطويلة العريضة ، وكان بعد ذلك كله عاجزًا عن فهم كلام البلغاء ، ووجه تفضيله على غيره ، دع عجزه عن ارتجال خطبة أو نظم قصيدة ، أو كتابة رسالة ، مما يصح أن يوصف بالبلاغة ، إلا أن يكون من وصف الجاهل الفاقد الذوق لكلامه أو كلام أمثاله بما يراه في مرآته أو من التحكم في تطبيق كل كلام على تلك القواعد الاصطلاحية ، التي لا يعرفون لها مدركًا علميًّا ولا نفسيًّا " (٢).

ولم يتوقف ذم رشيد رضا للسعد التفتازاني وكتبه عند هذا الحد بل بالغ فيه حتى الغلو حين قال:" فكأيِّن من أستاذ قرأ كتب السعد وغيرها مرارًا وهو أعجز عن الكتابة البليغة من صبية المدارس"(٣).

التحليل والنقد:

ظهر من خلال النصوص السابقة أن الشيخ رشيد رضا كان لا يروقه تدريس البلاغة في الجامع الأزهر من خلال كتب السعد والمتأخرين ؛ لأنه يرى أن

(١) مجلة المنار: المجلد الثامن غرة المحرم – ١٣٢٣هـ، الموافق : ٧من مارس : ١٩٠٥م: ٦/٢٢٤.

(٢) مجلة المنار: المجلد السادس والعشرين، المحرم ١٣٤٤هـ – أغسطس ١٩٢٥م:ص: ٣٤٥.

(٣) مجلة المنار : المجلد الثاني شوال – ١٣١٦هـ – مارس – ١٨٩٩م

هذه الكتب مجرد شروح لمتون جعلت الفن رسمًا محدودًا، واصطلاحات نظرية لا تهدى طلاب العلم للمعرفة والفن ، بل تضلهم عن ذلك سواء السبيل ، كما أنه يرى أن السعد التفتازاني قد أخرج البلاغة عن موضوعها بالكلية ، وازداد الأمر سوءا بمن وضع الحواشي على كتبه ؛ فتحجرت البلاغة وتعقدت وانصرف الناس عنها، وحِيلَ بينهم وبينها.

كما ظهر من نقد الشيخ رشيد عدم تمييزه بين السعد التفتازاني وبين غيره من شراح التلخيص ، فكل أتباع المدرسة الكلامية عنده سواء ، وموقف السعد عنده لا يخرج عن الاتجاه العام للبلاغيين المتأخرين، لأنه ينتمي إلى الاتجاه الذي اختطه السكاكي والمشروع الذي سعى إلى بلورته في مفتاح العلوم ، فهم جميعًا – عنده – لم يهدفوا إلى توضيح ما في التلخيص من إبهام وغموض وتعقيد ، بمقدار ما كانوا يهدفون إلى الإعلان عن مدى إلمامهم بالفلسفة والمنطق وأصول الفقه والنحو وغيرها [1].

كما أنه قد سيطرت عليه أيضا الشبهة الرائجة التي تَدَّعي أن المؤلفات البلاغية التي جاءت بعد الزمخشري لم تضف شيئا ذا بال في الدرس البلاغي.

ولا شك أن هذا تعميم خطير فيه إسقاط لطائفة كبيرة من المؤلفات البلاغية على رأسها المطول والمختصر، كما أن الأحكام العامة كثيرا ما تفتقر للدليل ، وتنأى عن الإنصاف والصدق والعدالة.

والحق أن التفتازاني كان رجلًا متميزا في كتاباته ، فمطوله لم يكن مجرد شرح للتلخيص فحسب ، بل كان يشرح فيه أولًا عبارة الخطيب من كل جوانبها ، ثم يتناولها بالنقد إن رآها قاصرة عن تحقيق شرط البيان والدقة في إصابة المراد

(١) الاستدلال البلاغي د شكري المبخوت: ٤٣ دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت ، لبنان، الطبعة الثانية ٢٠١٠م.

وكان يكتفي باللمحة الدالة في المواضع الواضحة ، ويطيل الشرح في المواضع الصعبة الخفية ، ولم يغب عن باله أن كتاب القزويني تلخيص لأصل هو مفتاح العلوم ، وأن القزويني لم يخل تلخيصه من نقد لذلك الأصل ، واعتراض على بعض آرائه ، واجتهاد في التقسيم والترتيب مخالف لما في المفتاح ، وزيادات من كتب الجرجاني والزمخشري وغيرهما ، واجتهاد في فهم كلام هؤلاء ونقده ، فجرد قلمه لمناقشة ذلك كله والتحقيق فيه والتثبت منه ، "فرد على القزويني في كثير من اعتراضاته على السكاكي وغيره من البلاغيين ، وبَيَّنَ أن جملة من تلك الاعتراضات قائمة على الخطأ في فهم طرائقهم وإلزامهم طريقته ، أو أنها قصور في فهم الكلام على وجهه ، أو أنها قائمة على النظر في جزء من كلامهم قبل تقصي تمامه من موضع الكلام الأول ، أو مما جاء في مواضع أخرى" .[١]

وكأن دأبه الدقة وعدم الإسهاب وكان إذا شعر أنه أطال في عرض مسألة ما كان يعتذر، ومن أقواله الدالة على ذلك: " وإنما أطنبت الكلام في هذا المقام، لأنه من مسارح الأنظار، ومطارح الأفكار، فكم من زلت فيه بالأفاضل أقدامهم ، وكلت دون الوصول إلى الحق أفهامهم" [٢].

وقال أيضا : "ولعمري إن التعرض لأمثال هذه المباحث مما لا ينبغي أن يُشتغل به لكنا نخاف على القاصرين أن يقعوا فيها من غير تأمل". [٣]

(١) التفتازاني وآراؤه البلاغية : ضياء الدين القالش: ١٦٠ دار النوادر، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ١٤٣١هـ – ٢٠١٠م.

(٢) المطول شرح تلخيص المفتاح : سعد الدين التفتازاني: ١٧٨ ت: د/ عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية بيروت ، الطبعة الأولى: (١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م).

(٣) المصدر السابق : ٢٢٠

أما ما يخص الاتهام الذي وُجِهَ للتفتازاني بشغفه بكثرة التقسيمات والتفريعات التي أحالت البلاغة ضربا من ضروب الرياضة الذهنية التي لا صلة لها بالبلاغة والفن ، فهذا يبعد عن الواقع ويجافي الحقيقة ، لأن من يتصفح المطول يجد السعد كثيرًا ما ينادي بتقليل التفريعات والأقسام ، ومن ذلك قوله عند الحديث عن أقسام وجه الشبه : " واعلم أن أمثال هذه التقسيمات التي لا تتفرع على أقسامها أحكام متفاوتة قليلة الجدوى ، وكأن هذا ابتهاج من السكاكي باطلاعه على اصطلاحات المتكلمين ، فلله در الإمام عبد القاهر وإحاطته بأسرار كلام العرب وخواص تراكيب البلغاء ، فإنه لم يزد في هذا المقام على التكثير من أمثلة أنواع التشبيهات وتحقيق اللطائف المودعة فيها". (١)

كما أنه أشاد بالخطيب القزويني حينما أراد" أن يدخل الخيالات والوهميات والوجدانيات في الحسي والعقلي تقليلاً للاعتبار، وتسهيلًا للأمر على الطلاب ؛ لأنه كلما قلَّ الاعتبار قلت الأقسام ، وإذا قلت الأقسام كان الأمر أسهل ضبطًا". (٢)

هذه النصوص وغيرها تدل على أن السعد لم يكن راضيا عن كثرة التقسيمات ، ولا مكترثا بها ، بل بالعكس كانت لا تروقه ، لكن عذره أنه كان مرتبطًا بشرح الإيضاح ، وكان مرتبطا بمنهج صاحبه ، وعلى الرغم من ذلك وجدناه ينتقد هذه التقسيمات العديدة ، ورأيناه يطالب الخطيب القزويني بالعودة إلى رحاب تقسيم الإمام عبد القاهر الجرجاني ، لقربه من البلاغة وروحها ، وبُعدِه عن التقسيمات العديدة التي شاعت في المدرسة الكلامية وأتباعها.

أما ما يخص الشبهة الرائجة التي تدعي أن المؤلفات البلاغية التي جاءت بعد الزمخشري لم تضف شيئا ذا بال في الدرس البلاغي، تلك الشبهة سيطرت على

(١) المطول : ٥٢٧

(٢) المطول : ٥١٩

عقول كثير من البلاغيين فأقروا بها واعتمدوها دون بحث أو دراسة ، وأخذوا يرددون أن من جاء بعد الزمخشري كان ينقل عنه نقلًا كاملًا دون توقف عند المنقول لاستخراج أصول وقواعد بلاغية ، والحق أن السعد التفتازاني كان له أثر في بلاغة الكشاف بمقدار ما للكشاف من أثر في كتابه ، وذلك أنه عنى عناية بينة بتفسير كلام الزمخشري وتحليل مثله ، واستخراج الأصول والقواعد البلاغية منها ، وبيان مذهبه في ضوء الدراسة العلمية المقررة لقواعد الفن في عصره ، كما أنه اعتمد على بلاغة الكشاف محاولًا تجاوز الحد الضيق الذي فرضه الخطيب على خصائص الصياغة في التعبير الأدبي ، كما قام بتصحيح أوهام القوم في فهم بلاغة الكشاف وتفسيرها.

ولم يتوقف أثر السعد في بلاغة الزمخشري عند هذا الحد ، بل وقف أيضا من الزمخشري موقف الناقد البصير، فنجده يرفض كلامه إذا كان فيه بعد عن الحق ، وهو في نقده ورفضه يعتمد على إدراك فطن وفهم نافذ(١). وخير مثال لما ورد في هذا الصدد موازنته بين رأي الشيخين عبد القاهر والزمخشري ورأي السكاكي في سر حذف المفعول في قوله تعالى:"ولما ورد ماء مدين "(٢)

من أجل ذلك كله كان مطول التفتازاني أفضل شروح التلخيص بلا خلاف ، وقد أشار لذلك كثير من النقاد والبلاغيين ، فقد قال الدكتور شوقي ضيف عن السعد : " إنه لا يتسع – مثل السبكي – في مزج مباحث النحو والأصول بمباحث البلاغة ، وأيضا لا يتسع مثله في جلب آراء البيانيين والبلاغيين ممن لا يجرون على منهج الإمام عبد القاهر سوى ما ذكره من بعض آراء ابن الأثير ، وهو جانب

(١) ينظر: البلاغة القر آنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية ، د/ محمد أبو موسى : ٥٢٩:٥٣٦ دار الفكر العربي بيروت.

(٢) سورة القصص: (٢٣)

يدل على دقته ، وأنه كان يعرف فرق ما بين الملاحظات المتفرقة وبين تحول المعاني والبيان عند مدرسة الإمام عبد القاهر إلى نظريتين لكل منهما وحدتها الشاملة ، وشرحه بعامة أوضح بيانًا من شرح السبكي ، إذ لم يوزعه بين مباحث مختلفة ، ولا بين آراء متباعدة، وجعل وكدَه الرجوع إلى كتابي عبد القاهر وكشاف الزمخشري ومفتاح العلوم ، مقابلاً بين آرائهم" [١].

وقال عنه الدكتور أحمد مطلوب: " المطول والمختصر من خيرة الكتب التي تمثل الاتجاه الكلامي في البلاغة ، وبقي الكتابان عمدة الدرس حتى العصر الحديث". [٢]

وقال عنه حاجي خليفة: " المطول والمختصر أشهر شروح التلخيص وأكثرها تداولا لما فيها من حسن السبك ولطف التعبير ، فإنهما تحرير نحرير أي نحرير" [٣].

ومن قبل ذلك قال ابن حجر العسقلاني عن السعد :" وقد انتهت إليه معرفة علوم البلاغة والمعقول بالمشرق ، بل بسائر الأمصار، ولم يكن له نظير في معرفة هذه العلوم ، ولم يخلف بعده مثله"[٤].

---

(١) البلاغة تطور وتاريخ : د / شوقي ضيف :٣٥٥ دار المعارف – القاهرة الطبعة الثانية عشرة / ٢٠٠٣م.

(٢) القزويني وشروح التلخيص : ٥٧١ مكتبة النهضة ، بغداد ١٩٦٤م.

(٣) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة: ٤٧٤/١ وكالة المعارف ، استامبول ١٩٤١م.

(٤) الدرر الكامنة في أعلام المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني:١٢٠/٥ ت: محمد سيد جاد الحق دار إحياء الكتب الحديثة

وفي هذا المقام لا نستطيع أن نتجاهل السب الرئيس الذي دفع التفتازاني لتأليف المطول أنه وجد أن "علم البلاغة قد وقع في أيدي جماعة أسراء التقليد ، فطفقوا يتعاطونه من غير توثيق وتسديد ، يحومون في تحرير مقاصده حول القيل والقال ، ويقتصرون من تقرير لطائفه على ذكر المقام والحال ، لا يخرج عن ربقة التقليد أعناقهم ، حتى تسبح في رياض التحقيق أحداقهم ، ولا ترتفع غشاوة التعصب عن بصائرهم حتى تنطبق دقائق التعقل في ضمائرهم ، كل بضاعتهم اللجاج والعناد ، وجل صناعتهم الانحراف من منهج الرشاد"[1] فأراد أن يؤلف مطوله ليرتقي بشأن البلاغة ، ويرشد الطالبين ويلفت أنظارهم لطرائق إدراك أسرار الكلم وأحكام النظم ، ويعلمهم كيف يتنبهون إلى الرمزة الدقيقة الشأن ، ويتفطنون للمحة الخفية المكان دون تعصب أو عناد.

(١) المطول: ١٢٦ و ١٢٧.

المبحث الثالث:

اتهام رشيدُ رضا السعدَ بضعف اللغة وركاكة الأسلوب وفساد الذوق

(عرض ونقد)

دعوى محمد رشيد رضا:

اتهم رشيد رضا السعد التفتازاني كثيرًا بضعف اللغة وركاكة الأسلوب وفساد الذوق ، ومن شواهد ذلك قوله في ثنايا حديثه عن إعجاز القرآن: " فمن لم يقرأ من كتب البلاغة إلا مثل شرحي التلخيص للسعد التفتازاني وحواشيهما لا يرجى أن يذوق للبلاغة طعما، أو يقيم للبيان وزنًا، فأنى يهتدي إلى الإعجاز بهما سبيلا، أو ينصب عليه دليلا؟! وإنما يرجى هذا الذوق لمن يقرأ أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر، فإنهما هما الكتابان اللذان يحيلانك في قوانين البلاغة على وجدانك ، وما تجد من أثر الكلام في قلبك وجنانك ، فترى أن علمي البيان شعبة من علم النفس ، وأن قواعدهما يشهد لها الشعور والحس ، ولكن لا بد مع ذلك من قراءة الكثير من منظوم الكلام البليغ ومنثوره، واستظهار بعضه مع فهمه ، كما قرر حكيمنا ابن خلدون في الكلام على علم البيان من مقدمته" [(١)].

وقال أيضا في أثناء رده على من زعم أن في السور الطويلة من روعة البلاغة وبراعة النظم ما ليس في السور القصيرة: " وأما من لا يعرف من بلاغة هذه اللغة إلا القواعد الفنية ، وأمثلتها الجزئية المدونة في مثل مختصر السعد التفتازاني ومطوله من كتب المعاني والبيان، فأجدر به أن يطبقها على كل كلام وناهيك به إذا عد منها ما ذكره المتنطعون من المتأخرين فيما يسمونه المحسنات البديعية، وشروط الفصاحة وعيوبها، وقد سمعت أن بعضهم مج ذوقه بعض فواصل

(١) تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) لمحمد رشيد رضا : ١٦٨/١- الهيئة المصرية العامة للكتاب: ١٩٩٠م .

سورة القمر، فكان بعض المستشرقين أصح منه فهما وذوقا، إذ قال إنها من أبلغ سور القرآن أو أبلغها كلها بلا استثناء"[١].

التحليل والنقد:

من يتصفح كتب السعد وخاصة مقدماتها يجد في أغلبها خلاف ما ادعى الشيخ رشيد رضا ، ففيها تظهر بلاغته وعنايته بالأدب ، وتكشف عن سعة اطلاعه على أساليب العرب ، وقد صرح بذلك في قوله:" فقد بعثني فرط الشغف بتتبع الخواص لتراكيب البلغاء ، وإيراد المعاني بالأساليب المختلفة الأنحاء، على أن نهضت طول الشباب إلى اقتناء العلوم العربية ، ونفضت أحلاس الأسباب إلى الارتقاء في الفنون الأدبية ، أحفظ كل نادرة سُمعت من الفصحاء في نواديها ومجامعها، أو صدرت عن البلغاء في بواديها ومراتعها، ما اطلعت على كتاب غريب إلا التقطت رغائبه ، ولا سمعت بأديب أريب إلا أخذت غرائبه" [٢].

لكنه كان أحيانا يذكر بعض الأساليب الركيكة التي لاتتناسب مع مقامه العالي كقوله عند حديثه عن الفرق بين هل البسيطة وهل المركبة ، هل البسيطة هي التي يطلب بها وجود الشيء أولا وجوده كقولنا: هل الحركة موجودة أو غير موجودة ، والمركبة هي التي يطلب بها وجود الشيء لشيء أو لا وجود له ، كقولنا : هل الحركة دائمة أو لا دائمة" [٣].

ولا شك أن البلاغة كانت على صلة وثيقة بالفلسفة والمنطق في مرحلة استقرارها ، وكان لهذا أثر كبير في ظهور مصطلحات الفلسفة والمنطق ومباحثهما

(١) تفسير المنار: ١١/٣٠٥

(٢) مقدمة شرح المفتاح للتفتازاني: اللوح ١/ب ، ٢/أ

(٣) المطول : ٢٣١

في كتابات البلاغيين المتأخرين ، الأمر الذي قد يؤدي إلى التعقيد والغموض وركاكة الأسلوب.

لكن هذه الصلة كان لها أثر حسن وآخر سيء ، أما الحسن فسنجده في ترتيب الأبواب والمباحث ، والتقسيمات الأساسية والتفريعات الجوهرية ، وضبط المسائل ، والعناية بالتعريفات حتى تكون جامعة مانعة . وأما الأثر السيء فيظهر في إقحام ألفاظ الفلسفة والمنطق وطرائق الفلاسفة في بحث الموضوعات وحصرها حصرًا منطقيا لا رواء فيه.

والحق الذي لا جدال فيه ، والواقع الذي يظهر للجميع أن التفتازاني قد وضع لنفسه منهجا يختلف عن بقية المتأخرين في تناول البلاغة ، اجتمعت فيه العلمية والفنية على صعيد واحد ، وكانت استعانته بالفلسفة والمنطق لضمان صحة التقسيمات وسلامة الافتراضات وقد وضح منهجه في مقدمته للمطول ، ومما قال: " ثم جمعت لشرح هذا الكتاب ما يذلل صعاب عويصاته الأبية ، ويسهل طريق الوصول إلى ذخائر كنوزه المخفية ، وأودعته فرائد نفيسة وُشِّحَتْ بها كتب القدماء ، وفوائد شريفة سمحت بها أذهان الأذكياء ، وغرائب نكت اهتديت إليها بنور التوفيق ، ولطائف فِقَرٍ اتخذتها من عين التحقيق ، وتمسكت في دفع اعتراضاته بذيل العدل والإنصاف ، وتجنبت في رد ما أورد عليه مذهبَ البغي والاعتساف ، وأشرت إلى حل أكثر غوامض المفتاح والإيضاح ، ونبهت على بعض ما وقع من التسامح للفاضل العلامة في شرح المفتاح ، وأومأت إلى مواضع زلت فيها أقدام الآخذين في هذه الصناعة ، وأغمضت عما وقع لبعض متعاطي هذا الكتاب من غير بضاعة ، ورفضت التأسي بجماعة حظروا تحقيق الواجبات ، وما فرضت على نفسي سنتهم في تطويل الواضحات". [1]

(١) المطول: ١٢٧

ومن أكثر المواطن التي اتُهِم فيها بالإفراط في استخدام ألفاظ الفلاسفة عند حديثه عن أنواع الجامع في مبحث الفصل والوصل فقد قيل إنه ذكر ألفاظا فلسفية غامضة كثيرة نحو : الآلات الجسمانية ، والقوة العاقلة المدركة للكليات ، والقوة المدركة للمعاني الجزئية الموجودة في المحسوسات ، والقوة الحاكمة بين المحسوسات ، وقوة التفصيل والتركيب بين الصور المأخوذة عن الحس المشترك. (١)

وعند الدرس والتثبت والتحقيق اتضح أن التفتازاني لم يكن محتفلا بذكر هذه الألفاظ ، بل أراد أن يوضح ويُفهِم ما ذكره السكاكي ونقله الخطيب وتصرف فيه تصرفا جعله مختلا ، وكان يظن أنه إصلاح له ، ولتأكيد ذلك سأعرض ما ذكره التفتازاني في هذا الموضع: " نقل المصنف كلام السكاكي ، وتصرف فيه بما جعله مختلا ، ظنا منه أنه إصلاح له ، ونحن نشرح أولاً هذا الكلام مطابقًا لما ذكره السكاكي ، ثم نشير إلى ما في نقل المصنف من الاختلال:

فنقول : من القوى المدركة العقل ، وهي القوة العاقلة المدركة للكليات.

ومنها الوهم ، وهي القوة المدركة للمعاني الجزئية الموجودة في المحسوسات من غير أن يتأدى إليها من طرق الحواس ، كإدراك العداوة والصداقة من زيد مثلا...

ومنها الخيال ، وهي قوة تجتمع فيها صور المحسوسات ، وتبقى فيها بعد غيبتها عن الحس المشترك ، وهي القوة التي تتأدى إليها صور المحسوسات من طرق الحواس الظاهرة فتدركها ، وهي القوة الحاكمة بين المحسوسات الظاهرة كالحكم بأن هذا الأصفر هو هذا الحلو ، ونعني بالصور ما يمكن إدراكه بإحدى الحواس الظاهرة ، وبالمعاني مالا يمكن.

---

(١) ينظر المطول: ٢٦٤

ومنها المفكرة ، وهي التي لها قوة التفصيل والتركيب بين الصور المأخوذة عن الحس المشترك ، والمعاني المدركة بالوهم بعضها مع بعض ، وهي دائما لا تسكن نوما ولا يقظة، وليس من شأنها أن يكون عملها منتظما ، بل النفس تستعملها على أي نظام تريد ، فإن استعملتها بواسطة القوة الوهمية فهي المتخيلة ، وإن استعملتها بواسطة القوة العاقلة وحدها أو مع القوة الوهمية فهي المفكرة."[١]

ثم يشرع بعد ذلك في شرح وبيان عبارة السكاكي على الوجه الصحيح فيقول: " إذا تمهد ذلك ، فنقول: ذكر السكاكي... ، ولا شك أن في هذا بيانًا لخفي ، وتصحيحًا لخطأ ، وتنبيهًا لوهم ، وليس فيه شيئ من إغلاق الفهم ولا حرص على استخدام ألفاظ الفلسفة والمنطق التي لا يفهمها إلا من أتقن هذين العلمين.

لكن هذا لا يمنع أن ترد ألفاظ الفلسفة والمنطق وتتواجد في ثنايا كتابه ، ومن أمثلة ذلك استخدامه لمصطلحي : العلة الفاعلية ، والعلة الصورية عند حديثه عن المجاز المرسل في اليد عندما يراد بها النعمة ، قال " اليد موضوعة للجارحة المخصوصة ، لكن من شأن النعمة أن تصدر منها وتصل إلى المقصود بها ، فالجارحة المخصوصة بمنزلة العلة الفاعلية لها ، وأيضا تظهر بها النعمة فهي بمنزلة العلة الصورية لها ، ومع هذا فلا بد من إشارة إلى المنعم مثل كثرت أيادي فلان عندي ، وجلت يداه لدي ". [٢]

أما ما يخص اتهام رشيد رضا للسعد بفساد الذوق ، فمن يتأمل طريقة شرحه للتلخيص يتيقن من أنه يمتلك ملكة أدبية وذائقة فنية نادرة الوجود ، فإنه يأتي بالشرح على نمط سياق المشروح حتى يظن القارئ أنهما كتاب واحد ، "ويوضح ما فيه خفاء ، ويصلح ما عليه مناقشة من دون تصريح بالاعتراض كما

(١) المطول : ٤٥٦

(٢) المطول : ٣٥٤.

يفعله غيره من الشراح ، وقلّ أن يفوته شيء مما ينبغي ذكره ، مع اختصار في العبارة يقوم مقام التطويل بل يفوق". [١]

كما أن من يتصفح المطول والمختصر يجد فيهما قدرا كبيرا من المواضع التي تُظهِر مقدرته البلاغية الرائعة ، وذوقه الفني المثقف ، ومن شواهد ذلك تعليقه على قوله تعالى: {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ}[٢] حيث قال:" فإنه جعل العذاب الذي يأتيهم من الغمام الذي هو مظنة الرحمة ليكون أشد ؛ لأن الشر إذا جاء من حيث لا يحتسب كان أغم ، كما أن الخير إذا جاء من حيث لا يحتسب كان أسر ، فكيف إذا جاء الشر من حيث يحتسب الخير ، ولذلك كانت الصاعقة من العذاب المستفظع لمجيئها من حيث يتوقع الغيث" {وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ} [٣]" [٤]

ومن ذلك أيضًا تعليقه على تنكير كلمة عذاب في قوله تعالى: (يَاأَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا)[٥] حيث عرض رأي السكاكي والخطيب القزويني وعلق عليهما بقوله: " وكلمة عذاب مما يحتمل التعظيم والتقليل، أي عذاب هائل أو شيء من العذاب ، ولا دلالة للفظ المس وإضافة العذاب إلى الرحمن على ترجيح الثاني ، كما ذكر بعضهم لقوله تعالى : " لمسكم

(١) البدر الطالع بمحاسن مَن بعد القرن السابع للشوكاني: ٣٦٥ ت: محمد حسن حلاق ، دار ابن كثير – دمشق ، الطبعة الأولى::٢٠٠٦م.

(٢) سورة البقرة : ٢١٠

(٣) سورة الزمر: ٤٧

(٤) المطول: ٤٩٢

(٥) سورة مريم: ٤٥

فيما أخذتم عذاب عظيم " [١] ولأن العقوبة من الكريم الحليم أشد لقوله عليه السلام السلام : " أعوذ بالله من غضب الحليم"[٢] فالسعد لم يرجح شيئا من تلك الأقوال اعتمادًا على ذوقه الفني المثقف.

وقد يتنبه السعد للمحات فنية واعتبارات لطيفة في شواهد عدها جميع البلاغيين من شواهد تنافر الكلمات ومن مشهور ما ذكر في الإخلال بفصاحة الكلام كقول أبي تمام:

كريم متى أمدحه أمدحه والورى معي وإذا ما لمته لمته وحدي[٣]

فقد عدَّ البلاغيون هذا البيت من شواهد تنافر الكلمات بسبب تكرار كلمة (أمدحه) فى الشرط والجزاء ، فضلا عن التنافر الخفيف الذي تولد من اجتماع الحاء والهاء في الكلمة المفردة وهما من حروف الحلق، فإذا تكررت الكلمة تضاعف ذلك الثقل، وحصل التنافر المخل للفصاحة.

لكن العلامة السعد لم يركن لهذا النقد الذائع ، وفطن لاعتبار لطيف في هذا البيت في استعمال واو الحال في قوله: (والورى معي) الذي دل على أنه لا يشاركه أحد في ملامته ؛ لأنه إنما يستحق المدح دون الملامة ، وفي استعمال

(١) سورة الأنفال: ٦٨

(٢) المطول:٢٣٦

(٣) ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي: ١١٦ ، دار المعارف ، الطبعة الرابعة ، وذكر الصاحب بن عباد أنه أنشد هذه القصيدة بحضرة ابن العميد، فلما بلغ هذا البيت قال له ابن العميد: هل تعرف فيه شيئا من الهجنة؟ قال: نعم مقابلة المدح باللوم، وإنما يقابل بالذم والهجاء فقال ابن العميد: غير هذا أردت، فقال: لا أدري غير هذا، فقال ابن العميد: هذا التكرار في "أمدحه" مع الجمع بين الحاء والهاء خارج عن حد الاعتدال، نافر كل التنافر، فأثنى عليه الصاحب.

إذا مع الفعل الماضي الذي أوهم ثبوت الدعوى ، فكأنه تحقق منه اللوم فلم يشاركه أحد". (١)

كما شرح العلامة السعد فن الرجوع بذوق فني رفيع حين علق على قول زهير بن أبي سلمى:

قف بالديار التي لم يعفها القدم بلى وغيرها الأرواح والديم(٢)

فقد قال " دل الكلام السابق على أن تطاول الزمان وتقادم العهد لم يعف الديار ، ثم عاد إليه ونقضه بأنه قد غيرها الرياح والأمطار لنكتة وهو إظهار الكآبة والحزن ، والحيرة والدهشة ، حتى كأنه أخبر أولا بما لم يتحقق ، ثم رجع إليه عقله وأفاق بعض الإفاقة فنقض كلامه السابق ، قائلا : بلى عفاها القديم وغيرتها الرياح والديم" (٣).

ومن الشواهد التي تدل على ذوق السعد الفني تعليله الماتع لسر تقديم الجار والمجرور(من أقصى المدينة) على كلمة (رجل) في قوله تعالى: { وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ}(٤) وتأخيره في قوله تعالى: { وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى} "(٥) فقد علل ذلك بأنه عرض أمر يوجب تقديم الجار والمجرور على الفاعل في سورة يس ؛ " لاشتمال ما قبل الآية على ما يدل على سوء معاملة أصحاب القرية الرسل ، فكان المقام مقام أن ينتظر السامع

(١) المطول: ١٤٦

(٢) ديوان زهير بن أبي سلمى: ١٤٥بشرح حمدو طماس ، دار المعرفة ، بيروت، لبنان ٢٠١٢م.

(٣) المطول :٤٢٤

(٤) سورة يس : ٢٠

(٥) سورة القصص:٢٠

لإلمام حديث بذكر القرية هل فيها منبت خير أم كلها كذلك ، فهذا العارض جعل المجرور نصب العين بخلاف قوله تعالى في سورة القصص: :{ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى} "[1] فإنه ليس فيها ذلك العارض" . [2]

ومن شواهد ذلك شرحه لمقصود ابن خفاجة الأندلسي من قوله:

والـرِّيحُ تَعْبَـثُ بالغُصُـونِ وقَـدْ جَـرَى ذَهَـبُ الأصـيلِ علـى لُجَـيْنِ المـاءِ[3]

حيث قال: " أي على ماء كاللجين ، أي الفضة في البياض والصفاء ، والأصيل هو الوقت بعد العصر إلى المغرب يوصف بالصفرة ، قال الشاعر:

ورُبَّ نهـــارٍ للفـــراق أصـــيلُهُ ووجهـــي كـــلا لونيهمـــا متناســـبُ[4]

فذهب الأصيل صفرته وشعاع الشمس فيه ، وعبث الريح بالغصون عبارة عن إمالتها إياها ، وخص وقت الأصيل ؛ لأنه من أطيب الأوقات كالسحر؛ قال الأبيوردي:

لياليـــه أســـحار وفيـــه هـــواجر كما خضلت والشمس تنعس آصال[5]

هكذا يجب أن ينقد الذهب واللجين المذكوران في البيت ، لا كما سبق إلى بعض الأوهام الفاقدة للبصائر الناقدة من أن اللجين إنما هو بفتح اللام وكسر الجيم – أعني : الورق الذي يسقط من الشجر ، وقد شبه به وجه الماء أو أن الأصيل

---

(١) سورة القصص: ٢٠

(٢) المطول : ٣٧٩

(٣) ديوان ابن خفاجة الأندلسي: ١٨ ت: د سيد مصطفى غازي، منشأة المعارف بالإسكندرية.

(٤) البيت من الطويل ، وهو لعلي بن الحسين الباخرزي: ٧٧ ت: محمد التونجي، دار صادر بيروت.

(٥) ديوان الأبيوردي أبي المظفر محمد بن أحمد بن إسحق : ٢٨/١ت: الدكتور عمر الأسعد / من مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق١٩٧٤م.

هو الشجر الذي له أصله وعرق ، وذهبه هو ورقه الذي اصفر ببرد الخريف ، وسقط منه على وجه الماء . وكل من هذين الوجهين أبرد من الآخر"[١]

كما كان للسعد اهتمام بالسياق وأثره في إبراز دلالة النص ، ومن شواهد ذلك قوله تعليقا على قول المعري:

والـــذي حـــارت البريـــة فيـــه حيـــوان مســـتحدث مـــن جمـــاد[٢]

" تحيرت البرية في المعاد الجسماني، والنشور الذي ليس بنفساني ، وفي أن أبدان الأموات كيف تحيى من الرفات؟!كذا في ضرام السقط، وقبله:

بـــأن أمـــر الإلـــه واختلـــف النـــا س فـــداع إلـــى ضـــلال وهـــاد[٣]

يعني: بعضهم يقول بالمعاد ، وبعضهم لا يقول به ، وبهذا تبين أن ليس المراد بالحيوان المستحدث من الجماد آدم – عليه السلام– ولا ناقة صالح – عليه السلام – ولا ثعبان موسى – عليه السلام– ولا القفنس على ما وقع في بعض الشروح ؛ لأنه لا يناسب السياق". [٤]

وختاما أقول: إن كل دارسي البلاغة يعرفون قيمة السعد وقدرته البلاغية إلا أن غزارة مادته العلمية وتنوع مصادرها وبعدنا عن طريقة التأليف في عصره وارتباطه بشرح التلخيص أخفت وراءها كثيرًا من معالم جدته وابتكاره ، وكانت سببا مباشرا في إعراض بعض الناس عنه ، هذا فضلا عن إعجاب الناس بالإمام عبد القاهر ومنهجه في التأليف البلاغي جعلهم ينظرون هذه النظرة للسكاكي والتفتازاني

(١) المطول: ٥٦١

(٢) ديوان سقط الزند لأبي العلاء المعري:٢/ ١٠٠٤دار صادر للطباعة والنشر ١٩٥٧م.

(٣) السابق: ٢/ ١٠٠٤

(٤) المطول: ٢٥٤.

وأتباع المدرسة الكلامية ، مع أن عبد القاهر نفسه قد حاول وضع النظريات وتقرير الأصول والقواعد.

وإذا كانت كتب التفتازاني وطريقته في التأليف بهذا السوء الذي يرونه ويعتقدونه فما السر في انتشارها وقرائتها وإقرائها في كثير من معاهد العلم حتى يومنا هذا؟!.

الخاتمة

١- يُعَدُ الإمام محمد عبده السبب الرئيس والمحرك الأساسي للشيخ محمد رشيد رضا في موقفه من السعد التفتازاني ، فهو يستكمل ما بدأ شيخه من الاعتراض على تدريس بلاغة السعد التفتازاني في الجامع الأزهر ، والثورة نحو التخلص من هيمنة شروح التلخيص على ساحة الدرس البلاغي ، والسعي الحثيث لوضع الإمام عبد القاهر الجرجاني بدرتيه الرائدتين – دلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة– في صدارة المشهد البلاغي.

٢- ادعى الشيخ محمد رشيد رضا أنه صاحب منهج مستقل، وكان يردد كثيرًا أنه قام بالإصلاح باستقلال وبوازع من نفسه ، لا بالتلقين من شيخه ، وكان يؤكد على أنه مستقل برأيه في كل شيء[1] ، والحق والواقع ينافي ذلك ، لأن تأثره بشيخه الإمام محمد عبده واضح جلي لا تخطئه عين.

٣- النقد اللاذع الذي وجهه الشيخ رشيد رضا للسعد التفتازاني والطعن الشديد في كتبه فتح بابًا للاستهانة والاستخفاف بعلوم المتقدمين جملة واحدة ، فقد أتى بعده مَن لم يتوقف بجرأته على السكاكي والسعد التفتازاني والمتأخرين فحسب ، بل تجاوز ذلك وجار وعتا حتى ادعى أن بلاغة الإمام عبد القاهر ما هي إلا عجوز شمطاء ، أو أن الذي يلجأ إلى البلاغة العربية القديمة هو كالمريض الذي يلجأ إلى حلاق القرية ليداويه ، معرضا عن الطبيب الممارس المؤهل للعلاج!.

---

(١) ينظر: المنار والأزهر:١٣٣

٤- اتهم رشيد رضا السعدَ بشغفه بكثرة التقسيمات والتفريعات التي أحالت البلاغة ضربًا من ضروب الرياضة الذهنية التي لا صلة لها بالبلاغة والفن ، والحق أن هذا الاتهام يبعد عن الواقع ويجافي الحقيقة ، لأن من يتصفح كتب السعد يجده كثيرًا ما ينادي بتقليل التفريعات والأقسام ، ومن ذلك قوله عند الحديث عن أقسام وجه الشبه : " واعلم أن أمثال هذه التقسيمات التي لا تتفرع على أقسامها أحكام متفاوتة قليلة الجدوى ، وكأن هذا ابتهاج من السكاكي باطلاعه على اصطلاحات المتكلمين ، فلله در الإمام عبد القاهر وإحاطته بأسرار كلام العرب وخواص تراكيب البلغاء ، فإنه لم يزد في هذا المقام على التكثير من أمثلة أنواع التشبيهات وتحقيق اللطائف المودعة فيها"[١] كما أنه أثنى على الخطيب القزويني حين أراد" أن يدخل الخيالات والوهميات والوجدانيات في الحسي والعقلي تقليلاً للاعتبار، وتسهيلًا للأمر على الطلاب ؛ لأنه كلما قلَّ الاعتبار قلت الأقسام ، وإذا قلت الأقسام كان الأمر أسهل ضبطًا"[٢] فالسعد لم يكن راضيا عن كثرة التقسيمات ، ولا مكترثا بها ، بل بالعكس كانت لا تروقه ، لكن عذره أنه كان مرتبطًا بشرح التلخيص ، وكان مرتبطا بمنهج صاحبه.

٥- اتهم رشيدُ رضا السعدَ بفساد الذوق بناء على نزعته الفلسفية واهتمامه بالجانب المعياري على حساب الجانب البياني الفني ، مع أن من يتصفخ المطول والمختصر يجد فيهما قدرًا كبيرا من المواضع التي

(١) المطول : ٥٢٧

(٢) المصدر السابق : ٥١٩

تظهر فيها مقدرة السعد البلاغية الرائعة ، وذوقه الفني المثقف[1] كما أن طريقة شرحه للتلخيص تدل على أنه يمتلك ملكة أدبية وذائقة فنية رائقة ، فإنه أتي بالشرح على نمط سياق المشروح حتى يظن القارئ أنهما كتاب واحد ، ويوضح ما فيه خفاء ، ويصلح ما عليه مناقشة من دون تصريح بالاعتراض كما يفعله غيره من الشراح ، وقلّ أن يفوته شيء مما ينبغي ذكره ، مع اختصار في العبارة يقوم مقام التطويل بل يفوق.

٦- اتهم رشيدُ رضا السعدَ بضعف اللغة وركاكة الأسلوب ؛ لأنه من علماء العجم الذين تأثروا بالسكاكي في طريقته التقريرية ، والحق أن السعد كان يذكر أحيانا بعض الأساليب الركيكة التي لاتتناسب مع مقامه العالي، لكن غالب أسلوبه يدل على أنه يجمع بين توقد الفكر وبلاغة اللسان ورهف الشعور.

٧- لم يكن محمد رشيد رضا موضوعيًا في غالب نقده للسعد ، ولم يخل أسلوبه من الاستهزاء والسخرية والتجريح في السعد وكتبه. وأحكامه على التفتازاني جلها أحكام ناقصة مبنية على استقراء ناقص.

٨- لم يفرق رشيد رضا بين التفتازاني وبين غيره من شراح التلخيص ، فقد أصدر عليهم حكمًا واحدا ، لم يستثن منهم أحدا ، فجميعهم – في نظره – قد أسهموا في تجميد البلاغة وعجمتها وإغراقها في مباحث الفلسفة والمنطق ، وقد ألقى بهذه الدعوى دون بحث أو دراسة لكافة أعمالهم ،

(١) ينظر المبحث الثالث من هذا البحث.

فحكمه كان مبنيًا على استقراء ناقص ، كما أنه لم يتنبه إلى أن السعد التفتازاني كان له منهج خاص في الشرح والتحقيق والتثبت ومناقشة العلماء ، ولم يفطن لما في المطول من استيعاب لكتب البلاغة السابقة عليه مع نقدها وتحقيق مسائلها والإضافة عليها بما له أبلغ الأثر في الدرس البلاغي ، الأمر الذي جعل المطول يتبوأ تلك المكانة البلاغية المرموقة.

٩- يحمل المطول في طياته كثيرًا من النقد والتطوير لمنهج السكاكي والخطيب القزويني ، لا يقف عليها إلا المحقق المتجرد من الهوى والعصبية الممقوتة.

التوصيات

١- يجب على الباحثين إعادة قراءة كتابي التفتازاني : المطول والمختصر في ضوء المعطيات المعرفية والسياقات التاريخية ؛ من أجل إعادة الاعتبار لهما ، ووضعهما في مكانهما اللائق بهما.

٢- تحتاج المكتبة العربية لدراسة تتناول منهج السعد في كافة كتبه : في علم الأصول وعلم الكلام والفقه... للكشف عن معالم منهجه ؛ للخروج بنظرة كلية له ، والسعي نحو بناء فكر شامل عن منهج التفكير عند علمائنا.

٣- ضرورة تحرر الدارسين من الأحكام المسبقة المبنية على الهوى والعصبية الممقوتة والتي اشتهرت وذاعت وكانت مبنية على استقراء ناقص.

المصادر والمراجع:

١- الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي (١٨٦٠-١٩٢٠) : لوجيه كوثراني، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٧٨م.

٢- الاستدلال البلاغي: د شكري المبخوت ، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت ، لبنان، الطبعة الثانية ٢٠١٠م.

٣- أسرار البلاغة : الإمام عبد القاهر الجرجاني ، ت: محمود شاكر ، مطبعة المدني ، القاهرة (الطبعة الأولى:١٤١٢هـ - ١٩٩١م).

٤- الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين: خير الدين الزركلي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة السابعة.

٥- إقامة الحجة على أن الإكثار في التعبد ليس ببدعة ، للإمام أبي الحسنات محمد عبد الحي الكنوي الهندي ، ت: عبد الفتاح أبو غدة ، مكتب المطبوعات الإسلامية بيروت ، الطبعة الثالثة ١٩٩٨م

٦- أمالي الأذكار: الحافظ ابن حجر العسقلاني، ت: كيلاني محمد خليفة ، مؤسسة قرطبة – بيروت.

٧- إنباء الغمر بأبناء العمر: ابن حجر العسقلاني ، طُبع بإشراف د/ محمد عبد المعيد خان ، دائرة المعارف العثمانية ، وهو مصور بدار الكتب العلمية بيروت ، الطبعة الثانية:١٩٨٦م.

٨- البدر الطالع بمحاسن مَن بعد القرن السابع للشوكاني: ت: محمد حسن حلاق ، دار ابن كثير بدمشق ، الطبعة الأولى::٢٠٠٦م.

٩- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة : عبد المتعال الصعيدي – مكتبة الآداب ، الطبعة السابعة عشر: ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

١٠- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة : جلال الدين السيوطي ، ت:محمد أبو الفضل إبراهيم ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، الطبعة الأولى: ١٣٨٤هـ .
١١- البلاغة تطور وتاريخ : د- شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثانية عشرة: ٢٠٠٣م.
١٢- البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية : د- محمد أبو موسى ، دار الفكر العربي ، بيروت.
١٣- تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده : محمد رشيد رضا ، الدار الفيصلية للنشر والتوزيع والتصدير، الطبعة الأولى: ٢٠٠٣م.
١٤- تراثنا الفكري في ميزان العقل والشرع : محمد الغزالي ، دار الشروق ، الطبعة الرابعة.
١٥- التفتازاني وآراؤه البلاغية : ضياء الدين القالش ، دار النوادر، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.
١٦- تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) : محمد رشيد بن علي رضا - الهيئة المصرية العامة للكتاب: ١٩٩٠م.
١٧- حاشية السيد الشريف الجرجاني على المطول : ت : د رشيد أعرضي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٧م.
١٨- حاشية الفناري على المطول : حسن شلبي - من مطبوعات شركة الصحافية العثمانية: ١٣٠٩هـ.
١٩- درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة : تقي الدين المقريزي ، ت: د محمود الجليلي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الأولى : ٢٠٠٢م.
٢٠- الدرر الكامنة في أعلام المائة الثامنة : ابن حجر العسقلاني ، ت: محمد سيد جاد الحق ، دار إحياء الكتب الحديثة ،١٩٩٩م.

٢١- الدليل الشافي على المنهل الصافي : ابن تغزي بردي: ت: فهيم محمد شلتوت ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ١٣٧٥هـ.
٢٢- شذرات الذهب في أخبار من ذهب : ابن العماد الحنبلي - دار الفكر ، القاهرة.
٢٣- ديوان ابن خفاجة الأندلسي:ت: د سيد مصطفى غازي، منشأة المعارف بالإسكندرية.
٢٤- ديوان الباخرزي ، علي بن الحسين ت: محمد التونجي، دار صادر بيروت (بدون تاريخ).
٢٥- ديوان الأبيوردي أبي المظفر محمد بن أحمد بن إسحق ، ت: الدكتور عمر الأسعد- من مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٧٤م.
٢٦- ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي: دار المعارف ، الطبعة الرابعة.
٢٧- ديوان زهير بن أبي سلمى، شرح: حمدو طماس ، دار المعرفة ، بيروت، لبنان ٢٠١٢م.
٢٨- ديوان سقط الزند لأبي العلاء المعري ، دار صادر للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ١٩٥٧م.
٢٩- شرح مختصر المنتهى الأصولي:عضد الدين عبد الرحمن الإيجي ، وعلى المختصر والشرح : حاشية سعد الدين التفتازاني وحاشية السيد الشريف الجرجاني ، وعلى حاشية الجرجاني حاشية الشيخ حسن الهروي الفناري ، وعلى المختصر وشرحه وحاشية السعد والجرجاني حاشية الشيخ محمد أبو الفضل الوراقي الجيزاوي ت: محمد حسن محمد حسن إسماعيل : دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى: ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م.

٣٠- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان : محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ التميمي ، ت: شعيب الأرنؤوط : مؤسسة الرسالة – بيروت – الطبعة: الثانية، ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م.
٣١- القزويني وشروح التلخيص: د أحمد مطلوب ، مكتبة النهضة ، بغداد ، الطبعة الأولى: ١٩٦٤م.
٣٢- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: حاجي خليفة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٢م.
٣٣- مشاهير علماء نجد وغيرهم : عبد الرحمن بن عبد اللطيف ، دار اليمامة للبحث والترجمة ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٤هـ ، ١٩٧٢م.
٣٤- المطول شرح تلخيص المفتاح : سعد الدين التفتازاني ، ت: د عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية بيروت ، الطبعة الأولى: (١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م).
٣٥- المعاصرون: محمد كرد علي، من منشورات المجمع الدمشقي ١٩٨٠م ، علق عليه وأشرف على طباعته الأستاذ محمد المصري .
٣٦- معجم البلدان: ياقوت الحموي ، دار صادر ، بيروت: ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.
٣٧- معجم المؤلفين : عمر رضا كحالة – مكتبة المثنى ، بيروت.
٣٨- المعول شرح أبيات المطول : وحدي بن إبراهيم الفرضي ، من مخطوطات مكتبة شستربيتي ، أيرلندا.
٣٩- مقدمة ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد بن خلدون – دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع – ٢٠٠٦م.
٤٠- المنار والأزهر: محمد رشيد رضا، دار النشر للجامعات ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٨م.

٤١- مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب - أمين الخولي ، دار المعرفة ، الطبعة الأولى: ١٩٦١م.
٤٢- المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي : ابن تغري بردي ، ت : محمد محمد أمين ، الهيئة العامة المصرية للكتاب: ٢٠٠٥م.
٤٣- وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام: محمد بن عبد الرحمن السخاوي ، ت: د بشار عواد معروف وصاحبيه ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الأولى: ١٩٩٥م.

المخطوطات:

١- حاشية حسن جلبي على المطول - مخطوطات مكتبة الأسد الوطنية ، دمشق، سوريا.
٢- حاشية مفتي زادة على خطبة المطول - مخطوطات مكتبة الأسد الوطنية ، دمشق، سوريا.
٣- شرح خطبة المطول : الخطابي عثمان نظام الدين ، من مخطوطات مكتبة الأسد الوطنية.
٤- عقود الدرر في حل أبيات المطول والمختصر: حسين بن شهاب الدين العاملي- مخطوطات مكتبة الأسد الوطنية.
٥- المعول شرح أبيات المطول : وحدي بن إبراهيم الفرضي ، من مخطوطات مكتبة شستربيتي ، أيرلندا.

المجلات والدوريات:

- مجلة المنار: المجلد الثاني: شوال - ١٣١٦هـ - مارس - ١٨٩٩م ، والمجلد الثامن: غرة المحرم - ١٣٢٣هـ، الموافق : ٧من مارس : ١٩٠٥م ، والمجلد السادس والعشرون: المحرم ١٣٤٤هـ - أغسطس ١٩٢٥م.